

## حول وليم راعي كنيسة القديس ألبان

جاء في هذا العام بعد جون راعي كنيسة القديس ألبان وليم، وكان راهباً من الكنيسة نفسها، وقد جرى انتخابه بشكل مهيب في يوم عيد القديس إدموند الملك والشهيد، الذي وافق اليوم الخامس من الاسبوع، وفي يوم القديس أندرو الرسول، الذي وقع في يوم الأحد الأول من ميلاد مولانا، جرى بشكل حبري ومهيب تكريسه أمام المذبح الكبير في كنيسة القديس ألبان من قبل أسقف إيلاي، ويحكى بأن ترقية هذا الرجل قد شوهدت في رؤيا ليلية من قبل أحد الرهبان، من ذلك الدير، وكان ذلك حتى قبل عمل الانتخاب، وكان أول راعي دير لكنيسة القديس ألبان الشهيد الانكليزي، ويلغود Willegod الذي كان أول راعي دير جرى تعيينه، وقد أمر بمراعاة الطريق النظامية للحياة، في الأول من آب، في سنة سبعمائة وأربع وتسعين، لتجسيد ربنا، وكان ذلك من قبل الملك أوفافا Offa ملك الميركانيين Mercians ، بعد اكتشاف جسد الشهيد، وتقديم الرهبان، مع أن الكنيسة لم تكن قد بنيت بعد، وجاء بعد ويلغود وخلفه: ايدريك Edric، ثم وولسيوس Wolsius، ثم وولنووث Wolnoth، ثم ايدفرد Edfred، ثم وولسين Wolsin، ثم ألفريك Alfric، ثم ايلدرد Eldred، ثم ادمار Edmar، ثم ليوفريك Leofric ، الذي عمل رئيساً لأساقفة كانتربري، وجاء من بعده وخلفه ألفريك أخو ليوفريك المذكور، وجاء من بعد ألفريك وخلفه ليوفستان Leofstan، ثم فريدريك، ثم بولص، ثم رتشارد، ثم غيوفري، ثم رالف، ثم روبرت، ثم سيمون، ثم وارين Warin وخلف وليم جون، وبذلك كان وليم راعي الدير الثاني والعشرين الذي جرى تعيينه لهذا المنصب، في العام السادس عشر من حكم الملك جون.

## الطلب الذي عمله بارونات انكلترا من أجل حقوقهم

كان عام ١٢١٥م هو العام السابع عشر من حكم الملك جون، فيه عقد

بلاطه في وينكستر في عيد الميلاد، وذلك لمدة يوم، حيث بادر بعد ذلك مسرعاً إلى لندن، واتخذ مقراً له في المعبد الجديد، وإلى هذا المكان، جاء إليه النبلاء الذين تقدم ذكرهم أعلاه، في صفوف عسكرية بهية، وطالبوا بتأكيد الامتيازات والقوانين العائدة للملك إدوارد، مع الامتيازات الأخرى الممنوحة لهم وإلى الملكة، وإلى كنيسة انكلترا، حسبما ورد ذكرها في الصك، وكذلك قوانين الملك هنري الأول، التي ورد ذكرها أعلاه، وأكدوا أنه كان قد وعد، أيام تحليته في وينكستر بإعادة القوانين، والامتيازات القديمة التي التزم بها، ووعد بيمينه بمراعاتها، ولدى سماع الملك للهجة الجريئة للبارونات في عملهم مطالبهم، خاف كثيراً من هجوم من قبلهم، وذلك عندما رأهم مستعدين للقتال، وأعطى على كل حال جواباً، بأن مطالبهم كانت مسألة هامة وصعبة، ولذلك طالب بهدنة حتى نهاية الفصح، حتى يتمكن بعد تقدير وتمعن من إرضائهم، والحفاظ بالوقت نفسه على كرامة تاجه، وبعد كثير من المناقشات من على الطرفين، قام الملك - مع أنه لم يكن قانعاً - بالحصول على رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف إيلاي، ووليم مارشال، ليكونوا ضامنين له، في أنه سوف يقوم في اليوم الذي جرى الاتفاق عليه، من دون اعتراض أو تعليل، بإرضائهم جميعاً، وبناء عليه عاد الجميع إلى مواطنهم، وأراد الملك - على كل حال - اتخاذ احتياطات من أجل المستقبل، فجعل جميع النبلاء في أرجاء انكلترا كلها يقسمون على الولاء له وحده، ضد جميع الناس، وأن يقوموا بتجديد تابعيتهم، ولكي يكون أكثر ضماناً لنفسه، قام في يوم طهارة القديسة مريم، فحمل صليب ربنا، وقد لجأ إلى هذا العمل واقتنع به صدوراً عن الخوف أكثر منه قناعة بالتقوى.

ومات في العام نفسه يوستانس أسقف إيلاي في ردنغ، وكان رجلاً بارعاً في اللاهوت وكذلك بالمعارف الإنسانية.

## الأشخاص الرئيسيون الذين أرغموا الملك

### على منح القوانين والامتيازات

وفي اسبوع الفصح من هذا العام نفسه، اجتمع النبلاء الذين تقدم ذكرهم في ستامفورد مع خيول وسلاح، لأنهم كانوا قد أقنعوا الآن جميع نبلاء المملكة كلها بالالتحاق بهم، وشكلوا جيشاً كبيراً جداً، لأنه جرى تقدير وجود ألفي فارس في جيشهم، إلى جانب العساكر الخيالة والمرافقين والعساكر الرجالة، الذين كانوا مجهزين بعدة أشكال، وكان أعلى قادة هذا الطاعون: روبرت فتز - وولتر، ويوستاس دي فيسكي Vescy، ورتشارد دي بيرسي، وروبرت دي روس Roos، وبيتر دي بروس Brouis، ونيقولا دي ستوتفيل Stuteville، وسير Saer إيرل أوف وينكستر، و R. إيرل أوف كلير، و H. إيرل أوف كلير، والاييرل روجر بيغود، ووليم دي مونبري Munbray، وروجر دي كريسبي Creissi، ورانولف Ranulph فتز - روبرت، وروبرت دي فيري Vere، وفولك فتز - وارين Warine، ووليم ماليت Mallet، ووليم دي مونتأكيوت Montacute، ووليم دي بوشامب Beauchamp، و S. دي كايم، ووليم مودوت Maudut، وروجر دي مونت - بيغون Mont- Begon، وجون فتز - روبرت، وجون فتز - آلان، و G. دي لافال Laval، و O. فتز - آلان، و W. دي فوكس Vaux، و G. دي غانت Gant، وموريس دي غانت، و R. دي براكلي Brackele، و R. دي مونتيكت Muntfichet، و W. دي لانفالي Lanvali، و G. دي ماندفيل إيرل أوف اسكس، ووليم أخوه، ووليم دي هتنفيلد، وروبرت دي غريسلي Grealei، و G. مفوض أوف موتون Meu- tun، والاسكندر دي بونتيير Puinter، وبيتر فتز - جون، والاسكندر دي سوتون Sutune، وأوسبرت دي بوبي Osbert de Bobi، وجون قسطلان سيستر، وتوماس دي مولوتون Molutone، وآخرون كثر،

وكان هؤلاء جميعاً متجددين بالقسم، وكانوا مؤيدين برأي ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان على رأسهم، وكان الملك في هذا الوقت ينتظر وصول نبلائه في أكسفورد، وفي يوم الاثنين بعد ثمانية الفصح، اجتمع البارونات المذكورون في بلدة براكلي Braekley، وعندما علم الملك بهذا، أرسل إليهم رئيس أساقفة كانتربري، ووليم مارشال إيرل بمبروك Pem-broke، مع رجال حكماء آخرين، لمعرفة أية قوانين وامتيازات كانوا يطلبون، وبناء عليه سلم البارونات إلى الرسل ورقة بقياس كبير تحتوي القوانين والأعراف القديمة للمملكة، وأعلنوا أنه ما لم يقيم الملك على الفور بمنحهم ذلك، وتأكيده المنوح بخاتمته، فلسوف يستولون على قلاعهم، ويرغموه على منحهم ترضية كافية بالنسبة لمطالبهم المذكورة من قبل، وحمل رئيس الأساقفة والرسل من أتباعه الورقة إلى الملك، وقرأ والده عناوين الورقة واحداً واحداً حتى أكملوها، وعندما سمع الملك بمقاصد العناوين، قال ساخراً، مع غضب شديد: «لماذا لم يطالب البارونات بين هذه المطالب غير العادلة بمملكتي أيضاً؟ إن طلباتهم عابثة وخيالية، وغير مؤيدة بأي عقل أو منطق مطلقاً»، وأعلن أخيراً وهو مغضب، وأيد إعلانه بالقسم، بأنه لن يمنحهم مطلقاً مثل هذه الامتيازات، لأن ذلك سوف يحوله ليكون عبداً لهم، والشطر الأكبر من هذه القوانين والامتيازات التي طلبها النبلاء وأرادوا تثبيت منحها لهم، قد جرى وصفها أعلاه في صك الملك هنري، وجرى استخراج بعض منها من القوانين القديمة للملك ادوارد، حسبما سيوضحها هذا التاريخ في الوقت المناسب.

### حصار قلعة نورثامبتون من قبل النبلاء

وبما أن رئيس الأساقفة ووليم مارشال لم يتمكنوا بأية وسيلة اقناع الملك بالموافقة على مطالبهم، فقد عادوا -بناء على أمر الملك - إلى البارونات، وحكوا لهم تماماً كل الذي سمعوه من الملك، وعندما سمع النبلاء الذي قاله جون، عينوا روبرت فتز - وولتر قائداً لجنودهم، ومنحوه لقب «قائد

جيش الرب والكنيسة المقدسة»، ثم إنهم طاروا أفراداً وجماعات إلى السلاح، ووجهوا قواتهم نحو نورثامبتون، ولدى وصولهم إلى هناك، قاموا على الفور بإلقاء الحصار على القلعة، إنما بعدما أقاموا هناك مدة خمسة عشر يوماً، ورأوا أنفسهم أنهم كسبوا قليلاً، أو لم يحققوا أي تقدم، قرروا لذلك نقل معسكرهم، لأنهم جاءوا من دون مجانيق، ومن دون آلات الحصار الأخرى، ولأنهم لم يحققوا أهدافهم، زحفوا بشكل مضطرب إلى قلعة بدفورد Bedford وخلال ذلك الحصار قتل حامل راية روبرت فترز - وولتر مع آخرين، ذلك أنه أصيب برأسه بسهم قوس زيار، فمات، مما سبب الحزن لكثيرين.

### كيف أعطيت مدينة لندن وسلمت إلى البارونات

وعندما وصل جيش البارونات إلى بدفورد، استقبل بكل احترام من قبل وليم دي بوشامب، وإليهم قدم إلى هناك أيضاً رسل من لندن، أخبروهم بشكل سري، أنهم إذا ما رغبوا بالدخول إلى تلك المدينة، فعليهم الوصول إلى هناك فوراً، وتحمس البارونات بوصول هذه الرسالة الموافقة، وقوضوا معسكرهم على الفور، ووصلوا إلى وير Ware ، وزحفوا بعد ذلك طوال الليل، ووصلوا في الصباح الباكر إلى مدينة لندن، فوجدوا الأبواب مفتوحة، فدخلوا إلى المدينة من دون صخب، عندما كان السكان يقيمون الصلوات اللاهوتية، لأن أغنياء أهل المدينة كانوا يفضلون البارونات، وكان الفقراء يخشون من التذمر ضدهم، وحدث دخولهم في اليوم الرابع والعشرين من أيار، وكان يوم أحد هو التالي لما قبل صعود ربنا، وبعدهما دخل البارونات إلى المدينة، مركزوا حرسهم وجعلوهم مسؤولين عن كل باب من الأبواب، ثم إنهم نظموا شؤون تلك المدينة بشكل جيد، وأخذوا بعد هذا رهائن من سكان المدينة، وأرسلوا رسائل إلى جميع أرجاء انكلترا، إلى الايرلات، والبارونات، والفرسان، الذين ظهروا أنهم ما برحوا مخلصين إلى المذاك، مع أنهم تظاهروا بذلك فقط، ونصحوهم

مع التهديد، أنهم إذا أرادوا الحفاظ على سلامة ممتلكاتهم ومقتنياتهم، فما عليهم إلا التخلي عن الملك الذي كان حائثاً بقسمه، ومقاتلاً ضد البارونات، وأن يقفوا معهم بثبات، وأن يقاتلوا ضد الملك من أجل حقوقهم ومن أجل السلام، وأنهم إذا مارفصوا فعل ذلك فإنهم -أي البارونات- سوف يشنون الحرب ضدهم جميعاً، كما يشنونها ضد الأعداء المكشوفين، وسوف يدمرون قلاعهم، ويحرقون بيوتهم والأبنية الأخرى، وسوف يجربون حظائهم، وحدائقهم وبساتينهم، وكانت أسماء بعض هؤلاء الذين كانوا لم يقسموا بعد على النضال في سبيل هذه الامتيازات: وليم مارشال، إيرل بمبروك Pembroke، ووالف إيرل أوف شيستر، ووليم إيرل سالسبري، ووليم إيرل وورني Warrenne، ووليم إيرل ألبمارل Albemarle، وهد. H. إيرل كورنوال Cornwall، وو. W. دي ألبيني Albinney، وروبرت دي فييونت Kipont وبيتر فتز - هيوبرت، وبرين Brian دي لي آيل، وغ. G. دي فيرنيفال Furnival ، وتوماس باسيت Basset، وهنري دي بريبروك Braibroc ، وجون دي باسنغبورن Bassingeburne، ووليم دي كانتيلو Cantelu ، وجون مارشال، ووليم بريويري Briuerre ، وقام الشطر الأكبر من هؤلاء إثر تسلمهم الرسائل من البارونات بالانطلاق إلى لندن، والالتحاق بهم، متخليين عن الملك كلياً، وتوقفت مرافعات الخازن ومحاكم عمد المناطق، في جميع أرجاء انكلترا، لأنه لم يعد هناك من يعمل قيمة للملك، أو يطيعه في أي شيء.

### المؤتمر بين الملك وبين البارونات

عندما رأى الملك نفسه وقد هجر من الجميع تقريباً، حيث لم يبق معه من الأتباع الملكيين إلا أقل من سبعة فرسان، خاف من أن يقوم البارونات بالهجوم على قلاعه ومن ثم الاستيلاء عليهم من دون صعوبة، لأنهم لن يجدوا عائقاً يعيق عملهم، فتظاهر خداعاً، وود أن يعمل سلاماً لبعض

الوقت مع البارونات المتقدم ذكرهم، ولذلك بعث إليهم وليم مارشال  
ايرل أوف بمبروك مع رسل آخرين موثوقين، وأخبرهم أنه من أجل  
السلام، وفي سبيل رفعة المملكة ومكانتها، على استعداد لمنحهم القوانين  
والامتيازات التي يطلبونها، كما بعث رسالة مع هؤلاء الرسل أنفسهم إلى  
البارونات، لتعيين يوم مناسب ومكان موافق للاجتماع، لاخراج هذه  
المسائل إلى حيز التنفيذ، وبناء عليه جاء رسل الملك مسرعين تماماً إلى لندن،  
وروا من دون خداع إلى البارونات الذي فرض عليهم خداعاً، فقاموا  
وسط سرورهم العارم، فحددوا يوم الخامس عشر من حزيران موعداً  
للملك ليلتقي بهم، في حقل قائم فيما بين ستين Staines ووندسور، وتبعاً  
لذلك جاء الملك والنبلاء في الوقت المحدد إلى المكان المتفق عليه، لحضور  
المؤتمر المعين، وعندما مركز أعضاء كل فريق أنفسهم بعيداً عن الفريق  
الأخر، شرعوا في نقاش طويل حول شروط السلام، وكان الذين حضروا  
من جانب الملك ولصالحه: ستيفن رئيس أساقفة كانتبري، وهـ. H.  
رئيس أساقفة دبلن، والأساقفة: و. W. أسقف لندن. وب. P. أسقف  
وينكسر، وهـ. H. أسقف لنكولن، وج. J. أسقف باث، وولتر  
أسقف ووركستر، وو. W. أسقف كوفتري، وبندكت أسقف روكستر،  
والمعلم باندولف الرجل المقرب من مولانا البابا، والراهب الميرك Almer-  
de مقدم فرسان الداوية في انكلترا، والنبلاء: وليم مارشال ايرل بمبروك،  
وايرل سالسبري، وايرل وورني، وايرل أورنديل، وألان دي غالوي Gal-  
wey، وو. W. فتز -جيرالد، وبيتر فتز -هيربرت، وألان باسيت، ومتى  
فتز - هيربرت، وتوماس باسيت، وهيوغ دي نيفيل، وهيوبرت دي برى  
Burgh مفوض بواتو، وروبرت دي روبلي Ropley، وجون  
مارشال، وفيليب دي أوبني، أما الذين كانوا من جانب البارونات، فليس  
من الضروري تعدادهم وذكر أسمائهم، لأن جميع نبلاء انكلترا كانوا  
مجتمعين مع بعضهم بأعداد من غير الممكن إحصاءها، وبعد ماجرى نقاش  
كثير من النقاط من كلا الجانبين، وجد الملك نفسه أدنى قوة من البارونات،

ولذلك وافق، دون أن يثير أية مصاعب، على القوانين والامتيازات المدونة أدناه، وثبتها لهم بهذا الصك كما يلي:

### صك الملك جون ليكون بمثابة منحة للحقوق العامة للبارونات

«من جون بفضل نعمة الرب، ملك انكلترا، الخ، ليكن معلوماً، أننا ونحن ننظر إلى الرب من أجل سلامة نفسنا وسلامة نفوس أجدادنا وورثتنا، ومن أجل تشريف الرب، وتمجيد الكنيسة المقدسة، وتحسين أوضاع مملكتنا، تنازلنا للرب، وقمنا بالتأكيد في صكنا الحالي، أصالة عن أنفسنا وعن ورثتنا بشكل أبدي، بأن كنيسة انكلترا سوف تكون كنيسة حرة، ولنسوف نحفظ قوانينها كاملة سالمة وامتيازاتها غير مخروقة، ونحن نرغب بقدر ما هو ممكن بالحفاظ على حرية الانتخابات، التي تعد الأكثر أهمية، والأعظم ضرورة للكنيسة الانكليزية، وقد منحنا ذلك طواعية من قبل أنفسنا، وأكدنا ذلك وثبتناه بصكنا، قبل قيام أي خلاف بيننا وبين باروناتنا، وقد حصلنا على تأكيد لها وتثبيت من مولانا البابا انوسنت الثالث، وسوف نحفظ بها نحن أنفسنا، ونرغب بأن تراعى من قبل ورثتنا بإخلاص ووفاء دائم، ومنحنا أيضاً إلى رعايانا الأحرار في مملكة انكلترا، من أنفسنا، وعن ورثتنا بشكل دائم، جميع الإمتيازات المدونة أدناه، لتكون لهم وليحفظوا بها هم وورثتهم منا ومن ورثتنا، وإذا ما مات أي واحد من إيرلاتنا أو باروناتنا، أو أي واحد بحوزته ممتلكات منا بشكل رئيسي بخدمة فروسية، وكان وريثه بعد موته قد بلغ السن (القانوني) وامتلك بدل التخليص، سوف يأخذ ميراثه، مقابل بدل التخليص القديم، أي أن وريث إيرل—أو وريثه—سوف يدفع مائة باوند من أجل جميع بارونية الأيرل، ويدفع وريث بارون—أو وريثه— مبلغ مائة مارك من أجل بارونية كاملة، ويدفع وريث فارس—أو وريثه— مبلغ مائة شلن، كأقصى حد مقابل جميع رسم فروسيته، والذي يمتلك أقل، دعوه يدفع أقل، وفقاً للعادة القديمة

للأجور، ولكن إذا ما كان وريث أي واحد من هؤلاء تحت السن (القانوني)، لن يكون لمولاه الوصاية عليه أو على أرضه، قبل أن يتلقى ولاءه وبعد ذلك سوف يكون مثل هذا الوريث تحت الوصاية وعندما يصل إلى سن الحادية والعشرين، وقتها سوف يستحوذ على ميراثه من دون بدل أو غرامة، ومثل هذا إذا عمل الوريث، ورسم وهو ما يزال تحت السن القانوني، فارساً، ستبقى أرضه مع ذلك تحت وصاية مولاه حتى يصل إلى السن الذي تقدم تحديده، وسوف يأخذ الوصي على ممتلكات وريث تحت السن القانوني من أرض الوريث المذكور، دخلاً معقولاً فقط، ومكسباً معقولاً، وخدمة معقولة، ويكون هذا كله من دون الحاق تهديم، أو تخريب أو ضرر للشخص أو للممتلكات، وإذا ما عهدنا بالوصاية على مثل تلك الأرض، إلى أي واحد، سواء أكان عمدة أو أي واحد آخر، عليه أن يقدم حساباً لنا عن صادرات تلك الأرض، وإذا ما تسبب أثناء وصايته بتخريب أو تبديد لها، سوف نأخذ تعويضات منه، وسوف يعهد بالأرض إلى اثنين من التابعين الاقطاعيين، وإلى رجلين حكيمين بذلك الرسم، الذين عليهم — بالطريقة نفسها — تقديم حساب إلينا، كما تقدم الذكر أعلاه، وعلى الوصي، مادام مسؤولاً عن تلك الأرض، الانفاق من الانتاج، على جميع البيوت والحدائق، والحظائر، والبحيرات، والطواحين، والمنشآت الأخرى لتلك الأرض، وعندما يصل الوريث إلى السن القانونية، أن يعيد الأرض إليه مجهزة بالمحاريث، وبالأشياء الأخرى، وأن تكون على الأقل بحالة جيدة، كما تسلمها، وينبغي مراعاة هذه الأحكام جميعها من قبل الأوصياء على رئاسات الأسقفيات، والأسقفيات، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، والكنائس، والمناصب العليا الشاغرة العائدة إلينا، باستثناء وصايات أولئك التي ليست للبيع، ويمكن للوارثة الزواج دون أن يحط ذلك من قدرها، ويمكن للأرملة إثر وفاة زوجها مباشرة، أن تأخذ دون أدنى صعوبات، وتستحوذ على حصة زوجها أو الميراث

الذي امتلكته هي وزوجها، في يوم وفاة ذلك الزوج، ويمكنها البقاء في البيت الرئيسي لزوجها لمدة أربعين يوماً بعد وفاة زوجها المذكور، وخلال ذلك الوقت سوف تعطى لها بائنتها بعد تخصيصها لها، ما لم تكن قد خصصت لها من قبل، أو ما لم يكن ذلك البيت قلعة، وإذا ما غادرت تلك القلعة، ينبغي تزويدها ببيت مناسب، يمكنها أن تقيم فيه حتى يجري تخصيص بائنتها لها، وفقاً لما تقدم ذكره أعلاه، وسوف تحصل على علاوة مناسبة لها شخصياً من الممتلكات العامة، وسوف يخصص لها من أجل بائنتها ثلث حصة من جميع أرض زوجها، التي كانت له أثناء حياته، وذلك ما لم تتسلم أقل كبائنة عند باب الكنيسة، ولا ترغب أرملة على الزواج عندما ترغب بالعيش من دون زوج، وإذا كانت تحتفظ بملكية منا، فعليها أن تقدم ضماناً بأنها لن تتزوج من دون موافقتنا، ولن نستولي نحن أو وكلاؤنا على أية أرض أو ممتلكات من أجل أي دين، ما دامت قطعان المدين، الموجودة آنذاك بين يديه، كافية لدفع الدين، والمدان نفسه على استعداد لتلبية طلبنا منهم، ولن يكون كفلاء المدين ملزمين بشيء ما دام المدين نفسه شخصياً قادراً على أن يدفع الدين، وإذا عجز المدين نفسه عن دفع الدين، لأنه لا يمتلك وسائل الدفع، أو رفض الدفع مع أنه قادر، على كفلائه دفع ديونه، وإذا ما رغبوا فإنهم يستحوذون على أراضي ودخل المدين حتى تتم ترضيتهم بالنسبة للدين، الذي كانوا قد دفعوه عنه، وذلك ما لم يظهر المدين نفسه بأنه تخلص من الدين بالنسبة لكفلائه، وسوف تمتلك مدينة لندن جميع إمتيازاتها القديمة، وعوائدها الحرة، علاوة على ذلك سوف نمنح، لا بل منحنا، بأن جميع المدن الأخرى، والبلدات، والقرى، وبارونيات الموانئ الخمسة، وجميع موانئنا سوف تمتلك جميع امتيازاتها وعوائدها الحرة، ولن يكون على أي واحد تقديم خدمات أكبر مقابل رسم فارس، أو من أجل أي مستغل حر آخر، أكثر مما يتوجب عليه الدفع مقابل ذلك، ولن تكون المرافعات والشكاوى العامة مرافقة لمحكمة بلاطنا، بل

يمكن عقدها في بعض الأماكن المحددة، وبالنسبة لكفالة الممتلكات المنتزعة حديثاً، وموت جد، فلسوف تعالج بكونيتها بهذه الطريقة، وإذا كنا موجودين، أو كنا خارج المملكة، سوف يتولى ذلك رئيس العدالة لدينا، ورجال عدالتنا خلال كل كونية مرة في العام، وسوف يقوم مع فرسان الكونية بعقد المحكمة المتقدم ذكرها في كل كونية، والأشياء التي لا يمكن تدبرها من قبل المرسلين المتقدم ذكرهم في المحكمة المذكورة، سوف يجري تدبرها في مكان آخر من قبل المرسلين أنفسهم خلال رحلتهم، والأشياء التي يتعذر تدبرها، بسبب بعض المصاعب المتعلقة بنقاط القضية، من قبل المرسلين المذكورين، سوف تحال إلى رجال عدالتنا أصحاب المنصة، وهناك يجري تقديرها، ولسوف تعقد المحاكم المتعلقة بآخر التقدّمات إلى الكنائس، دوماً وتعرض أمام رجال العدالة ذوي المنصة، وهناك يجري تقريرها، وسوف يجري تغريم رجل حر من أجل عدوان صغير، فقط وفقاً لدرجة خطيئته، أو من أجل عدوانه الكبير، وفقاً لكبر عدوانه — باستثناء أنفسنا — سوف يجري تغريمها بالطريقة نفسها تاجر، باستثناء تجارته، ونذالة أي إنسان — باستثناء أنفسنا — سوف يجري تغريمها بالطريقة نفسها، باستثناء أدوات زراعته، إذا ترامي بنفسه على رحمتنا، ولن يجري عمل أي من العلاوات المتقدمة الذكر، إلا على أساس يمين رجال مجريين وقانونيين من جيران تلك الكونية، ويجري تغريم الأيرلات والبارونات فقط من قبل المساوين لهم بالرتبة، ووقتها فقط وفقاً لدرجة جريمتهم، وما من رجل لاهوتي سوف يجري تغريمه وفقاً لدرجة منافعه اللاهوتية، بل وفقاً لممتلكاته المدنية ودرجة جرائمه، وما من مدينة أو شخص سيكون مرغماً على عمل جسر فوق نهر من الأنهار، ما لم يكن ذلك متوجّباً عليه فعلة بموجب الأعراف القديمة أو الامتيازات، وما من نهر سوف يجري تطويقه أو عمل سد عليه، باستثناء الذين طوقوا أو عملت عليهم سدود أيام جدنا الملك هنري، وما من عمدة منطقة، أو مفوض، أو

محقق، أو أي من نوابنا الآخرين، يجوز له إقامة دعوى أو مرافعة باسم تاجنا، وإذا كان أي انسان بحوزته رسوم علمانية عائدة لنا، ومات، وأظهر عمدتنا أو وكيلنا رسائلنا المعتمدة مع انذار منا حول الدين الذي لنا بذمة المتوفى، سوف يكون قانونياً للعمدة التابع لنا أو لوكيلنا مهاجمة قطعان الميت التي يمتلكها في ارضه المقطعة مدنياً، وتسجيل هذه القطعان في حساب ذلك الدين، وفقاً لتقدير رجال قانونيين، ولذلك مامن شيء يجوز نقله من هناك، حتى يجري تحديد ديوننا والتأكد من دفعها، والبقية تترك بعد ذلك الى وصي المتوفى ليقوم بتصفيتها وفقاً لارادته، واذا لم يكن مداناً لنا بأي شيء، فإن جميع القطعان سوف تعطى إلى الوصي، باستثناء حصص معقولة إلى زوجته وأولاده، ولا يجوز لأي قسطلان أو نائبه أخذ قمح أو قطعان أي واحد ليس عائداً للبلدة الموجودة القلعة فيها، ما لم يقيم بدفع المال إليه، أو كان له تصرف آخر حسب ارادة البائع، لكنه إذا كان من أهل البلدة، فإن عليه أن يدفع الثمن خلال أربعين يوماً، ومامن قسطلان سوف يرغب أي فارس على الدفع له من أجل الاعتناء بالقلعة اذا مارغب بفعل ذلك شخصياً، أو لسبب مسوغ آخر، إذا لم يستطع فعل ذلك بسبب معقول، وإذا ما أردنا إرساله إلى الجيش، فإنه سوف ينفصل عن إشرافه ما دام محجوزاً من قبلنا في الجيش، وذلك بالنسبة للرسم الذي من أجله خدم في جيشنا، ولا يجوز لأي نائب أو عمدة، أو أي وكيل تابع لنا، أخذ خيول أو عربات عائدة إلى أي انسان من أجل حمل السلع، ما لم يدفع الإيجار المقرر منذ القديم، أي أن يدفع لأي عربة مع حصانين عشرة بنسات يومياً، ولكل عربة مع ثلاثة خيول أربعة عشر بنساً لكل يوم، ولا يجوز أخذ أية عربة عائدة إلى أي شخص لاهوتي، أو فارس، أو إلى أية سيدة، من قبل الوكلاء المذكورين، كما أننا لن نأخذ نحن، ولا وكلاؤنا، أو أي واحد من الآخرين أخشاباً عائدة لانسان آخر لعمل قلاعنا، أو للقيام بأي عمل من أعمالنا، ما لم يكن ذلك بموافقة الفئة العائدة إليها ملكية

الأخشاب، ولسوف نحتفظ بأراضي المدانين بجناية لمدة سنة واحدة ويوم واحد، وبعد ذلك سوف يجري تسليمهم إلى السادة المسؤولين عن الرسوم، وسوف تجري إزالة جميع الأسيجة كلياً في نهر التيمس ومدوي Medway وخلال أوروبا كلها، باستثناء ساحل البحر، والمذكرة التي اسمها « Praecipie » سوف لن تصدر بعد الآن من أجل أي إقطاعي، كي لا يفقد إنسان حر بلاطه، ولسوف يكون هناك مكيال واحد للخمرة وللبيرة في جميع أرجاء المملكة، وقياس واحد للقمح هو الربع اللندني، وعرض واحد بالنسبة للأقمشة المصبوغة بالألوان الخمرية والرمادية، سوف تكون ذراعين في داخل كل شقة مع وزن متوافق مع القياس، ولسوف لن يعطى من الآن فصاعداً أمراً بالتحقق لأي واحد يحتاج إلى تحقيق، فيما يتعلق بحياة أو بعضو من الأعضاء، بل إن ذلك سوف يمنح حراً من دون نكران، وإذا ما استحوذ واحد منا بالايجار مزرعة، أو استثمار أرض، أو اقطاعية، وكانت بيده أرض من شخص آخر مقابل خدمة فارس، سوف لن نتولى الاشراف على وريثه أو إدارة أرضه، التي هي ملك لآخر، بحجة تلك المزرعة المستأجرة، أو الأرض المستثمرة، أو الأقطاعية، ما لم تكن المزرعة المستأجرة نفسها عليها خدمة فارس، وسوف لن نتولى الاشراف على وريث أو أرض مأخوذة من آخر مقابل خدمة فارس، تحت حجة وجود أي ضابط صغير مستحوذ لها منا مقابل خدمة تقديم سكاكين أو أسهم أو أي شيء من هذا النوع، وما من وكيل سوف يضع انساناً منذ الآن فصاعداً أمام المحاكمة أو يجبره على أداء يمين بموجب حجته البسيطة، وذلك ما لم يتوفر له شهود موثوقين، يجري احضارهم من أجل هذا الغرض، ولا يجوز اعتقال أي إنسان حر أو سجنه، أو طرده من أي ملكية عائدة له، أو حرمانه من امتيازاته، وأعرافه الحرة، كما لا يجوز عدّه خارج القانون، أو عقوبته بأية وسيلة أخرى، كما لا تجوز مهاجمته من قبلنا، ولا إرساله إلى السجن ما لم يكن ذلك بموجب قرار قانوني صدر عن إنسان يساويه

مرتبة، أو بموجب قانون الأرض، ولن نبيع الحق والعدل إلى أي إنسان، كما لن نرفض ذلك، أو إلغائه، وللتجار — مالم يكونوا ممنوعين بشكل معلن — الحق بالخروج من انكلترا والدخول إليها، ولهم حق الإقامة والسفر بالبر وبالماء، وأن يبيعوا وأن يشتروا من دون أي ابتزاز، وذلك وفقاً للأعراف القديمة والعادلة، مالم يكن الأمر أثناء الحرب، وهم انضموا إلى البلد الذي هو في حالة حرب معنا، وإذا وجد مثل هؤلاء في أراضينا لدى بداية حرب من الحروب، يجري اعتقالهم دون الحاق ضرر بهم شخصياً أو بسلعهم، وذلك حتى نعلم نحن، أو رئيس العدالة لدينا، كيف تجري معاملة تجار بلادنا في البلد الذي هو بحالة حرب معنا، وعماً إذا كان تجارنا في حالة أمن معهم، فهم وقتها سيكونون بحالة سلم معنا، وإذا كان أي واحد يمتلك ملكية من ميراث عام، مثل من شرفية وولنغفورد، أو بولون، أو لانكستر، أو نوتنغهام، أو من أي ملكية عامة هي في أيدينا، وهي بارونية، ومات، فإن وريثه لن يدفع أي بدل، أو يقدم أية خدمة لنا، أكثر مما يدفعه أو يقدمه إلى البارون، إذا كانت تلك البارونية بيدي بارون، ونحن سوف نستحوذها بالطريقة نفسها كما استحوذها البارون، كما أننا لن نستحوذ أية ملكية عامة بحجة مثل تلك البارونية أو الملكية العامة، أو نقوم بالوصاية على أي من رعيتنا، مالم يكن المستحوذ للبارونية أو الملكية العامة، مستحوذاً منا في مكان آخر بشكل رئيسي، ومامن رجل حر سوف يقوم من الآن فصاعداً باعطاء أو بيع كثيراً من أرضه إلى أي إنسان، هو غير قادر على إدارتها، وذلك من البقية، وخدمتها حق لمولاه مقابل ذلك الرسم، وجميع رعاية الديرة الذين لديهم من ملوك انكلترا صكوك وقف، أو يمتلكون ملكية من خلال اقطاع قديم، سوف يكونون مسؤولين عن رعاية تلك الديرة عندما تصبح شاغرة، وذلك كما ينبغي أن يفعلوا، وكما جاء الايضاح والإعلان أعلاه، ولا يجوز اعتقال أي رجل وسجنه، بسبب شكوى امرأة، من أجل موت أي واحد، باستثناء أن يكون ذلك

الرجل زوجها، ولا يجوز من الآن فصاعداً استحواذ أية كونتية إلا من شهر إلى شهر، وحيث تكون الشروط المستخدمة أطول، سوف تكون أطول، ومامن عمدة أو وكيل لها يمكنه جعل شروطه في المائة أكثر من مرتين في السنة، ووقت ذلك فقط في أوقات مناسبة ومعتاد عليها، أي مرة بعد الفصح، وثانية بعد عيد القديس ميكايل، ووفق الطريقة نفسها بالنسبة للتعهد المفتوح، فإن ذلك سوف يقع في الموعد المذكور أي في عيد القديس ميكايل من دون اخفاق، وبذلك يمكن لكل إنسان أن يمتلك امتيازاته، مثلها امتلكها، واعتاد أن يفعل في أيام الملك هنري جدنا، ومنذ ذلك الحين، أو ما حصل عليه منذ ذلك الوقت، وبالنسبة للتعهد المفتوح سوف يحافظ عليه، وبذلك يمكن المحافظة على سلامنا، ولا تتعرض العشور للضرر، حسبما كانت العادة جارية، وبذلك لن يطلب العمدة حجة، وسوف يكون راضياً بما اعتاد العمدة على تسلمه من أجل تقديم معاينته في أيام جدنا الملك هنري، كما أنه لن يسمح له من الآن فصاعداً، اعطاء أرضه إلى بيت ديني، وذلك من أجل استئناف تملكها بعد وضعها في حوذة ذلك البيت الديني، كما لن يسمح لأي بيت ديني بتسلم أرض لإعادتها مستأجرة له، من الذي تسلموا ملكيتها منه، وإذا ما أعطى من الآن فصاعداً أي إنسان أرضاً إلى بيت ديني، وأدين بفعل ماتقدم، فإن أعطيته سوف تكون لاغية كلياً، وسوف تصبح الأرض في حوذة صاحب الاقطاع، ولسوف يجري من الآن فصاعداً أخذ بدل الخدمة العسكرية، حسبما كان هو معتاد في أيام جدنا الملك هنري، وجميع الأعراف المتقدم ذكرها والامتيازات، التي هي عائدة لنا، وجرى منحها لمراعاتها في مملكتنا، وذلك نحو جميع رعايانا في مملكتنا، سوف يجري التمسك بها ومراعاتها من قبل كل من رجال الدين والعلمانيين، بقدر ماهي متعلقة بهم وأيضاً نحو المتعلقين بهم، باستثناء مايتعلق برؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الكهنة، والداوية، والاستبارية، والايولات، والبارونات، والفرسان،

وجميع الآخرين من اللاهوتيين وكذلك من العلمانيين، فهؤلاء سيكون لهم الامتيازات والأعراف الحرة مثلما كان لديهم من قبل، شهد هؤلاء الخ»، ولم يكن من الممكن تدوين الامتيازات والأعراف الحرة المتعلقة بالغابات على الورقة نفسها، مثلما جرى تدوين الامتيازات المتقدم ذكرها، لأنها لم تكن واسعة بما فيه الكفاية، ولذلك جرى تدوينهم ووضعهم في الصك التالي:

### امتيازات الغابات

«من جون بفضل نعمة الرب ملك انكلترا، الخ، ليكن معلوماً أننا قمنا ونحن نتطلع نحو الرب، وفي سبيل حفظ نفسنا، وكذلك نفوس أجدادنا وخلفائنا، ومن أجل تمجيد الكنيسة المقدسة، ومن أجل تحسين مملكتنا، وبناء على محض اختيارنا وحررتنا، وأصالة عن أنفسنا ونيابة عن ورثتنا، فمنحنا الامتيازات المذكورة أدناه، للحفاظ عليها بشكل أبدي في مملكتنا انكلترا، ففي المقام الأول سوف يجري تفحص جميع الغابات التي عملها جدنا الملك هنري، ومن ثم تتم الموافقة عليها من قبل رجال قانونيين، وإذا عمل إنسان غابة من أشجار حرش إنسان آخر، أكثر مما هو عائد للملكية، من أجل إيذاء الممتلك لتلك الأشجار، سوف يجري على الفور عدم عدّها غابة، وإذا جعل أشجار أحراشه غابة، سوف تبقى غابة باستثناء المراعي العامة، والأشياء الخاصة في الغابة نفسها العائدة لاستخدامات المستحويين عليها، وجميع الناس الذين يعيشون خارج حدود غابة من الغابات، لن يجري إحضارهم — من الآن فصاعداً — أمام المسؤولين عن قضايا العدالة المتعلقة بالغابات، بموجب استدعاء عادي، ما لم يكن قد ادعي عليهم، أو كانوا كفلاء لشخص أو أشخاص لهم علاقة بغابة من الغابات، وكل الأحراش التي عملت غابات من قبل أخينا الملك رتشارد، سوف تُزال عنها هذه الصفة على الفور، ما لم يكونوا أحراشاً في مملكتنا، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة،

ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايولات، والبارونات، والفرسان، والمزارعين المستأجرين الأحرار، الذين لديهم أشجار في الغابة، سوف يتملكون حيازة أشجارهم مثلما فعلوا في أيام تنويج الملك هنري المتقدم ذكره، وبذلك سوف يظلون دوماً أحراراً، دون التعرض للازعاج، أو الاتلاف، ومن أعمال التحرير التي عملت في هذه الغابات منذ ذلك التاريخ حتى بداية السنة الثانية للتويجنا، وكل من يقوم من الآن فصاعداً، باقتراف اتلاف، أو أعمال شريرة، أو يقوم بتحرير في هذه الغابات من دون إذننا، سوف يقاضى من أجل أعمال الاتلاف والاضرار أو التحرير، وسوف يمضي مفتشونا خلال الغابات للقيام بالتفحص، كما كانت عليه العادة أيام تنويج جدنا المذكور الملك هنري، وليس عكس ذلك، والتحقيق، أو الرأي حول تخصيص طرق في الغابة للكلاب، سوف يؤخذ بعين التقدير من الآن فصاعداً، عندما يتوجب إجراء مسح، أي خلال كل سنة ثالثة، وعند ذلك سوف يجري اعتماد ذلك وفقاً لرأي وتقدير رجال قانونيين، وليس عكس ذلك، وإذا ماتم بعد ذلك العثور على أي كلب لايسير على المشى، وقتها يجري تغريم صاحبه ثلاثة شلنات، ومن الآن فصاعداً لايجوز اعتقال أي ثور من أجل ممشى، بل يتوجب تقدير ذلك المشى بشكل عام، بأن يكون بمقدار حجم ثلاثة حوافر من حافره الخلفي من دون الكرة، ولن يحتاج الكلاب من الآن فصاعداً إلى ممشى، ما لم يكن ذلك في أماكن من المعتاد أن يكون لهم فيها ممشى، كما حدث في أيام تنويج جدنا المذكور الملك هنري، ولايجوز من الآن فصاعداً لموظف غابة أو رجل أحرش فرض أتاوات أو جمع حزم من القمح أو من بقية أنواع الحبوب، أو أغنام، أو خنازير، أو تجميع أي شيء، وبعد إجراء التفتيش، سوف يجري تعيين كثير من موظفي الغابات لحراسة الغابات، بناء على رأي ويمين إثني عشر مفتشاً، سوف يرون أن الموظف فيه كفاءة بالعقل ويمكنه القيام بالعمل، ولايجوز من الآن فصاعداً حجز الرعاة في مملكتنا إلا ثلاث

مرات في السنة، أي قبل خمسة عشر يوماً من عيد القديس ميكائيل، عندما يأخذ موظفونا بالتجوال من أجل فرض الضرائب من أجل الحفاظ على أسيجة غاباتنا، وفي أيام عيد القديس مارتن، عندما يتولى هؤلاء الموظفون أنفسهم جباية رسوم الأسيجة والرعاية، وفي أثناء هذين المواعدين سوف يجتمع عمال الغابات، والرعاة، وأصحاب الخضراوات، والجباة، وليس سواهم، بموجب وثيقة مكتوبة، وثالث موعد للرعاة سوف يكون في اليوم الخامس عشر قبل عيد القديس يوحنا المعمدان، من أجل اطعام مواشينا، وفي ذلك الموعد سوف يجتمع: الرعاة، وعمال الغابات، وأصحاب الخضراوات، والجباة، ومامن أحد سواهم بموجب وثيقة مكتوبة، وعلاوة على ذلك، على أصحاب الخضراوات، وعمال الغابات، الاجتماع كل أربعين يوماً خلال كل عام، لتفقد وصلات الغابات، وكذلك بالنسبة لأعشاب المروج ولحم الطرائد أثناء حضور هؤلاء العاملين في الغابات، حيث سوف يجري حزمها ووصلها أثناء وجودهم، وبالنسبة للرعاة فإنهم سوف يجلسون في الكونتيات، التي اعتيد على حبسهم فيها، ويمكن لكل رجل حر جباية ضريبة لإصلاح حواجز أحراشه في الغابة، ولسوف يتسلم تعويضاته في سبيل ذلك، ونحن نمح أيضاً الإذن لكل رجل حر في أن يجلب خنازيره إلى داخل غابات ممتلكاتنا، بشكل حر وبدون معيقات، وأن يسيج عليهم في أحراشه، أو في مكان آخر حسب مايرضيه، وإذا ما تجولت خنازير أي رجل حر في غاباتنا لمدة ليلة واحدة، سوف لن يتخذ ذلك حجة ضده حتى لا يجرم من أي من ممتلكاته، كما أنه لن يجرم من الحياة أو من عضو من أعضائه لقيامه بالصيد في غاباتنا، لكن إذا ماجرى اعتقال إنسان، وأدين بالاستيلاء على لحم طرائد، فلسوف يدفع غرامة ثقيلة، إذا امتلك الإمكانات لفعل ذلك، وإذا لم يمتلك الإمكانات فلسوف يسجن لمدة سنة ويوم واحد، وإذا ما تمكن بعد مضي السنة واليوم من إيجاد كفلاء، وقتها يطلق سراحه من السجن، لكنه إذا

لم يستطع، فلسوف يناشد مملكتنا مملكة انكلترا، وإذا ما حدث أن قام أي رئيس أساقفة، أو أسقف، أو إيرل، أو بارون، أثناء قدومه إلينا بناء على أمرنا، بالمرور خلال غاباتنا، يمكنه وقتها أخذ حيوان أو حيوانين أمام موظف الغابة، وإذا لم يكن موظف الغابة موجوداً، عليه أن يضرب بالبوق، حتى لا يبدو، وكأنه أخذها سرقة، ويمكنه أن يقوم بالعمل نفسه في طريق عودته، ويمكن لكل إنسان حر من الآن فصاعداً، أن يبني في غابته، من دون معيق، أو في الأرض التي يمتلكها في الغابة، طاحوناً، أو أن يعمل مطردة للصيد، أو بحيرة، أو بئراً للسداد، أو خندقاً، أو يترك بقعة منزرعة، خلف ما هو مسيج في أرض منزرعة، بشرط أن لا تكون مضرّة لأي واحد من جيرانه، ويمكن لأي رجل حر أن يمتلك أنواعاً من طيور العقاب، أو من طيور الحر، أو النسور، أو مالك الحزين، ويمكنه ببعض الطرق أن تكون لديه مناحل في أحراشه، ومامن موظف غابات، هو ليس ضامن غابة مقابل رسم يؤديه لنا على وكالته، يجوز له من الآن فصاعداً، جباية أية ضريبة طريق في وكالته، بل ضامن الغابة الذي يدفع رسم لنا مقابل وكالته، يحق له أخذ ضريبة طريق، ويكون مقدار ذلك: بنسب عن كل عربة خلال نصف سنة، وبنسب آخرين مقابل النصف الآخر من السنة، ومن أجل حمولة حصان واحد ربع بنس عن نصف سنة، وربع بنس عن النصف الآخر من السنة، وتتم جباية هذا فقط من الذين يأتون من خارج وكالته، للتجارة في وكالته بناء على إذنه، ولشراء الأشجار، والخطب، والخشب، أو الفحم، ولأخذهم إلى مكان آخر للبيع، وذلك حيثما يودون، أما من العربات الأخرى ومن دواب التحميل، فلن تؤخذ ضريبة طريق، وتؤخذ ضريبة فقط من الأماكن التي جرت العادة على أخذها من قبل، أما الذين يحملون على أكتافهم حطبهم، أو خشبهم، أو فحمهم للبيع فلن يدفعوا أية ضريبة طريق، وإن كانوا يعيشون بهذه الوسيلة، ولن يتم دفع ضريبة طريق مقابل أخشاب الناس الآخرين في غاباتنا،

بل فقط مقابل أخشاب ممتلكاتنا، ويمكن لجميع الملاحقين قانونياً، بمسائل تتعلق بالغابات، منذ أيام جدنا الملك هنري حتى موعد تنويعنا، العودة بسلام من دون عائق، وعليهم توفير كفالات جيدة، تضمنهم أنهم لن يقوموا ثانية بتسبب الأذى لنا فيما يتعلق بغاباتنا، ولا يجوز لأي سيد اقطاعي، أو شخص آخر إقامة شكاوى حول الغابة سواء فيما يتعلق بأعشاب أسقف البيوت أو لحم الطرائد، لكن يمكن لأي موظف غابة برسم، أن يرفع شكوى تتعلق بالغابة، أو بالأعشاب المرجية، أو لحم الطرائد،. وعليه أن يرفع شكاويه إلى أصحاب الخضراوات في الكونتية، وبعد تدوينهم، وختمهم بخاتم أصحاب الخضراوات، يجري تقديمهم إلى رئيس موظفي الغابات، وذلك عندما يأتي إلى ذلك الجزء من البلاد، لينظر في دعاوى الغابات، ولسوف يجري حسم ذلك بحضوره، وإنها إرادتنا هي القاضية بمراعاة جميع الأعراف والامتيازات التي منحناها في المملكة، نحو رجالنا، ومن جانبنا سوف تجري مراعاتها من قبل جميع شعب المملكة، ومن قبل رجال الدين والعلمانيين نحو رجالهم».

### حول الخمسة والعشرين بارون الذين جرى تعيينهم من قبل الملك لمراجعة القوانين التي تقدم ذكرها

«صدوراً عن محبتنا للرب، ومن أجل إصلاح مملكتنا، ولحلّ الخلافات التي نشبت بيننا وبين باروناتنا وتسويتها، قد منحنا هذه الأشياء، راغبين بالحفاظ عليهم سالمين ومرتكزين على قواعد ثابتة، ونحن نمنح إليهم الضمانات المدونة أدناه، وهي:

أن يقوم البارونات باختيار خمسة وعشرين باروناً ممن يريدون من بارونات المملكة، وذلك حسبها يرغبون، وسوف يقوم هؤلاء مع كل ما باستطاعتهم من قوة بمراعاة، وبالحفاظ، وبالتسبب بمراعاة السلام، والامتيازات التي منحناها، والتي أكدناها بصكنا الحالي لهم، وبناء عليه،

إذا ما قمنا نحن شخصياً، أو صاحب العدالة لدينا، أو وكيل تابع لنا، باقتراف خطأ بحق بأي واحد، بأية طريقة من الطرق، أو خرقنا وتجاوزنا أي شرط من الشروط لهذا السلام وهذا الضمان، وأمكنت البرهنة على هذا الأذى من قبل أربعة من بين الخمسة والعشرين باروناً، عندها سوف يقدم هؤلاء البارونات الأربعة إلينا، أو إلى رئيس العدالة لدينا، إذا ما كنا خارج المملكة، ويتولون شرح ما حدث وتبيان الخطأ لنا، ويطلبون منا تقديم ترضية من دون تأخير، وإذا نحن - أو كنا نحن خارج المملكة - أو رجل العدالة لدينا، لم نعط ترضية خلال أربعين يوماً، تحسب من اليوم الذي أشير به بالقضية لنا، سوف يحيل البارونات الأربعة القضية إلى بقية الخمسة والعشرين، وعندها يتولى البارونات مع جميع الناس في البلاد ازعاجنا ومضايقتنا، بجميع الوسائل التي بين أيديهم، مثل الاستيلاء على قلاعنا، وأراضينا، وممتلكاتنا، وبمختلف الوسائل الأخرى، حتى نقدم لهم الترضية، وفقاً لقرارهم، وذلك باستثناء شخصنا، وشخصيات الملكة وأولادنا، وبعد تقديمنا الترضية لهم، هم سوف يطيعوننا كما فعلوا من قبل، وعلى كل واحد في المملكة، هو سوف يختار، أن يفعل كذلك، أن يقسم أنه من أجل الحفاظ على الشروط المتقدم ذكرها، أن يطيع أوامر الخمسة والعشرين باروناً المتقدم ذكرهم، وأنه سوف يضايقنا بالاتحاد معهم، إلى أقصى حد بطاقته، ونحن نمنح إذناً حراً ومفتوحاً، بأن يقسم هكذا إلى أي واحد يختاره ليفعل هكذا، ونحن لن نمنع أحداً من أن يقسم هكذا، هذا ولسوف نجعل جميع الذين في مملكتنا، الذين اختاروا أن يقسموا بالاتحاد مع البارونات من أجل مضايقتنا وازعاجنا، أن يقسموا على إطاعة أوامرنا المذكورة أعلاه، إنما في جميع الحالات التي عهد بها إلى تدبير هؤلاء الخمسة والعشرين باروناً، إذا حدث بالصدفة ولم يتفقوا بين أنفسهم حول أي نقطة، أو أن أياً منهم لدى دعوتهم إلى الاجتماع رفض الحضور، أو كان غير قادر على الحضور، ومهما كان الأمر تتولى الأكثرية

منهم اتخاذ القرار، والقرار الذي سوف يتخذ من قبلهم، سوف يجري اقراره وتبنيته، وكأن الخمسة والعشرين قد وافقوا عليه، ويتوجب على الخمسة والعشرين بارونا أن يقسموا على أنهم يراعون باخلاص الشروط المتقدم ذكرها، وأن يبذلوا غاية جهودهم لجعلهم موضع الرعاية والتطبيق، ونحن لن نفعل شيئاً شخصياً أو بوساطة انسان آخر، في تسبب نقض المنح والامتيازات المذكورة، أو إتلافها، وإذا ماجرى عمل أي منح من هذا القبيل، فسيكون ذلك لاغياً وفارغاً، ولن نقوم أنفسنا باستخدام ذلك أو من قبل أي انسان آخر، وجميع الخلافات والمهاترات، والضغائن التي ثارت بيننا وبين رعيتنا، ورجال الدين والعلمانيين، وذلك منذ نشوب الخلافات بيننا، قد أزلناها نهائياً، وتسامحنا بالنسبة لها كلها، وبالنسبة للذين تولوا مضايقتنا أكثر من سواهم، وأقصدهم بذلك أصحاب الأربع قلاع في: نورثامبتون، وكنيلورث Kenilworth، ونوتنغهام، وسكاربورا Scarborough، إن هؤلاء سوف يقسمون اليمين للبارونات الخمسة والعشرين، بأنهم سوف يتصرفون بقلاعهم، وفقاً لما سيقرره هؤلاء أو الأكثرية منهم، ولما سيأمرهم به أن يفعل، وسوف يجري تعيين شحن لهذه القلاع، يكونوا مخلصين دوماً، ولا يمتحنون بأيمانهم، ولسوف نبعد من مملكتنا جميع الأجانب، وجميع أقرباء جيرارد دي أثي Athie ، الذين هم: انغلارد Engeldard، وأندرو، وبيتر، وكـ ذلك غي دي تشانسيليس Chanceles، وغي دي سيغواغني Ciguigny، وزوجة جيرارد المتقدم ذكره مع أولادهما، وغيوفري دي مارتن Martenn وأخويه، وفيليب مارك وأخويه، وغ. G. حفيده، وفالكو Falco، وجميع الفلمنكيين، واللصوص الذين يسبون الأذى لمملكتنا، وعلاوة على ذلك، إن جميع الانتهاكات التي اقترفت بسبب هذا الخلاف منذ عيد الفصح الأخير، الذي وقع في السنة السادسة عشرة من حكمنا حتى تجديد هذا السلام، هي معفية بشكل عام من قبلنا، بالنسبة لجميع

رجال الدين والعلمانيين، وبالنسبة لنا هي مسامحة تماماً، وعلاوة على ذلك لقد تدبرنا منحهم شهادات ورسائل معتمدة من مولانا ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، ومن هنري أسقف درم، ومن باندولف، نائب رئيس الشمامسة، والصيديق المقرب من مولانا البابا، وكذلك من الأساقفة المتقدم ذكرهم، كضمانة لهذا وللمنح المتقدم ذكرها، وبناء عليه سوف نأمر بدقة بأن تكون الكنيسة الانكليزية حرة، وأن تمتلك جميع الرعية وتستحوذ على جميع الامتيازات، والقوانين، والأعراف، بشكل جيد وبسلام، وبصورة حرّة، وهادئة، كاملة وتامة، لأنفسهم، ولورثتهم، منا ومن ورثتنا، في جميع القضايا والأماكن كما قيل من قبل، وجرت أيضاً تأدية قسم بحضور الذين وردت أسماؤهم أعلاه، بمثابة شاهد على أنفسنا، وعلى البارونات، بأننا سوف نرعى جميع المواد والشروط المتقدمة الذكر باخلاص جيد، ومن دون معيقات وتحفظات مخادعة. منح تحت أيدينا في الحقل الذي اسمه رنيميد Runnymede، بين ستين ووندسور، في اليوم الخامس عشر من حزيران، في السنة السابعة عشرة لحكمنا».

### كيف أمر ملك انكلترا برسائل معتمدة بوجوب رعاية الامتيازات المتقدم ذكرها

بعد هذا، بعث الملك جون رسائل معتمدة إلى جميع أرجاء المناطق الانكليزية، أمر فيها بكل دقة جميع عمد المملكة كلها، بجعل السكان الموجودين في مناطق ادارتهم من كل مرتبة يقسمون على مراعاة القوانين التي كتبت أعلاه والامتيازات، وأن يقوموا بقدر مألدهم من قوة بازعاج الملك والضغط عليه، بالاستيلاء على قلاعه حتى يقوم بتنفيذ جميع الشروط التي تقدم ذكرها أعلاه، حسبما وردت في الصك، وبعد هذا جاء كثير من نبلاء المملكة إلى الملك يطلبون منه حقوقهم بالأرض والممتلكات، والولاية على القلاع، التي - كما قالوا - عائدة إليهم

بموجب حق الوراثة، لكن الملك أجل هذه القضية، حتى يكون قد تبرهن بيمين رجال تابعين اقطاعيين، ماهو حق وواجب لكل واحد، ولكي تكون القضية أكثر تأثيراً وفعالية، حدد السادس عشر من آب، ليكون يوماً للجميع للقدوم إلى ويستمنستر، ومع ذلك أعاد إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري قلعة روكستر، وبرج لندن، لأنها بموجب الحقوق القديمة يعودان إلى ولايته، ثم أنهى ذلك الاجتماع، وعاد البارونات مع الصك المذكور أعلاه إلى لندن.

### كيف انسحب الملك جون بشكل سري إلى جزيرة وايت ووضع خططاً ضد البارونات

وحسبنا ذكرنا، بعدما غادر البارونات المؤتمر، ترك الملك مع أقل من سبعة فرسان من بين جميع حرسه الشخصي وخدمه، وعندما كان مستلقياً في تلك الليلة من دون نوم في قلعة وندسور، خوفته أفكاره كثيراً وأرعبته، فهرب قبل انبلاج ضوء النهار خلصة إلى جزيرة وايت Wight، وأبدع هناك وهو يشعر بألم عظيم في عقله، خططاً للانتقام من البارونات، وقرر أخيراً بعد كثير من التأملات، مع مساعدة بطرس الرسول، أن ينشد الانتقام من أعدائه بسيفين: السيف الديوي، والسيف الروحي، وبذلك إذا لم ينجح بالسيف الأول، يمكنه بشكل مؤكد تحقيق أهدافه بالسيف الآخر، ولكي يضربهم بالسيف الروحي، أرسل باندولف، نائب الشماس البابوي، مع مبعوثين آخرين، إلى بلاط روما، للتصدي بوساطة السلطات الرسولية لنوايا البارونات، كما أنه أرسل أسقف وينكستر ومستشار انكلترا، وجون أسقف نورويك، ورتشارد دي ماريسكو Marisco، ووليم غيرنون Gernon، وهيوج دي بوفز Boves، مع ختمه الخاص، إلى جميع مناطق ماوراء البحر، للحصول على عساكر واكثرهم من هذه المناطق، واعدأ إياهم بأرض، وبوفرة من السلع، وبمبالغ كبيرة من المال، ولكي يضمن طاعة الناس،

وانضمامهم إليه، أمرهم - إذا كان الأمر ضروريا - منحهم وثائق ضمانات من أجل الدفع إلى جميع الجنود الذين سيلتقون بهم، ورتب أن يلتحقوا به في دوفر في عيد القديس ميكائيل، مع جميع الذين يمكن جذبهم إليهم، وعلاوة على ذلك، بعث برسائل إلى جميع ولاة قلاعه في جميع أرجاء انكلترا، أمراً بإيهم أفراداً وجماعات القيام بتزويد قلاعهم بجميع أنواع المؤن والسلاح، وبتحصين حصونهم بالجنود، حتى يكون بإمكانهم الدفاع عنهم يوم تلقي الأمر بذلك، ثم إنه قام بالوقت نفسه مع عدد قليل من الأتباع استعارهم من حاشية أسقف نورويك، وشرع يشغل نفسه في أعمال القرصنة، وسخر نفسه من أجل كسب مودة البحارة في الموانئ الخمسة، وهكذا أخفى نفسه في الهواء الطلق في الجزيرة وقرب شواطئ البحر، من دون أي مظهر ملكي، لمدة ثلاثة أشهر برفقة البحارة، لأنه كان يفضل أن يموت على أن يعيش طويلاً دون أن ينتقم للإهانات التي ألحقها به البارونات، وخلال ذلك الوقت جرى بين الناس تداول تقارير متنوعة من قبل مختلف الناس حوله، وقال بعضها بأنه تحول إلى صائد سمك، وقال آخرون بأن صار تاجراً، وقال بعض آخر بأنه صار قرصانا، وحكى بعض الناس بأنه صار مرتدأ، وبعد ما بحث عنه كثيرون، خلال غيابه المخطط له، بدون نجاح، أخذوا يعتقدون أنه قد غرق، أو هلك بطريقة ما من الطرق، وعرف الملك بجميع هذه التقارير وتحملها برباطة جأش منتظرا الوصول المتوقع لمبعوثيه، الذي أرسل بعضهم إلى بلاط روما، وبعضهم الآخر لتجنيد عساكر لمساعدته.

### الافادات التي عملها رسل ملك انكلترا للبابا

ومثل في الوقت نفسه رسل ملك انكلترا أمام مولانا البابا في روما، وعرضوا عليه وبينوا العصيان والمضار التي اقترفتها بارونات انكلترا ضد الملك المذكور، واستخرجوا منه بعض القوانين والامتيازات غير

العادلة، التي جعلت كرامته الملكية غير ثابتة، وأنه بعد كثير من الخلافات فيما بينهم وبينه، اجتمع الملك المذكور والبارونات عدة مرات للتفاوض حول السلام، وأنه أعلن بوضوح أمامهم جميعاً، بأن مملكة انكلترا هي بموجب حق الحكم عائدة إلى كنيسة روما، ولذلك هو لا يحق له، ولا ينبغي له، عمل أية ترتيبات جديدة، من دون معرفة مولانا البابا، أو تغيير أي شيء في المملكة لأن التغيير يتوجب تغييره من قبل الخبر الأعظم، ومع أنه عمل حول ذلك مرافعة شكوى، وأنه وضع نفسه وجميع حقوق مملكته تحت حماية الكرسي الرسولي، فإن البارونات المذكورين، لم يعيروا أدنى اهتمام وتقدير لشكواه، وقاموا بالاستيلاء على مدينة لندن، التي هي عاصمة مملكته، حيث سلمت إليهم بشكل خياني، وهم حتى الآن مستولون عليها، وطاروا بعد هذا إلى السلاح، وامتطوا ظهور خيولهم، وطلبوا من الملك وجوب تأكيد القوانين المتقدم ذكرها مع الامتيازات المذكورة، ولم يتجرأ الملك على رفض ماطلبوه، خشية أن يقوموا بمهاجمته، ثم أعطى الرسل المذكورون إلى البابا ورقة مكتوبة تحتوي بعض المواد من الصك المذكور، التي بدت أنها تؤيد قضية الملك كثيراً، وبعدهما قرأهم البابا بدقة، قال متعجباً ومندهِشاً: «هل يسعى بارونات انكلترا نحو الطرد من عرش مملكته، ملكاً قد حمل شارة الصليب، وهو موجود تحت حماية الكرسي الرسولي، وأن ينقلوا إلى آخر حكم الكنيسة الرومانية؟ بحق القديس بطرس لا يمكننا تجاوز هذه الالهانة من دون عقوبتها»، ثم إنه قام بعد التشاور مع كرادلته، باصدار قرار حاسم لعن فيه الصك المذكور الذي قضى بمنح الامتيازات لمملكة انكلترا، وألغاه إلى الأبد، وكبرهان مؤيد لهذا، حول إلى الملك الانكليزي الاعفاءات التالية:

كيف جرى باعفاء من الكرسي الرسولي إلغاء الامتيازات التي  
منحت إلى البارونات الانكليزي

« من انوسنت، أسقف وعبد عبيد الرب، إلى جميع المؤمنين بالمسيح، الذين سوف يرون هذه الورقة، أمني الصحة، والمباركة الرسولية، إنه مع أن ولدنا المحبوب جيداً بالمسيح جون الملك المشهور للانكليز قد أغضب الرب كثيراً، والكنيسة المقدسة - ولذلك غللناه بأغلال الحرمان الكنسي، ووضعنا مملكته تحت الحرمان من شراكة المؤمنين - إنه مع هذا فإن الملك المذكور، بالهام من رحمته الذي لا يرغب بموت المذنب، بل إنه يريد منه أن يهتدي وأن يعيش طويلاً بعد اهتدائه، وتوبته بكل تواضع إلى الرب، والكنيسة، وتوبته هو لم يعط التعويض فقط للذين خسروا، وأعاد الممتلكات المصادرة، بل إنه منح حرية كاملة إلى الكنيسة الانكليزية، وعلاوة ذلك لقد قام بعد سحب القرارين، بالتخلي عن مملكته في انكلترا، وكذلك عن مملكته في ايرلندا، إلى القديس بطرس، وكنيسة روما، وقد تسلمها منا بحرية، على شرط دفع مبلغ سنوي مقداره ألف مارك، وتأديته قسم التبعية لنا، كما ظهر بامتياز المههور بخاتم ذهبي، ورغبة منه في منح المزيد من الترضية للرب القدير، حمل شارة الصليب الحي، من أجل الذهاب لتقديم العون إلى الأرض المقدسة، الأمر الذي كان يعد نفسه إليه مع كثير من النفقات، لكن عدو الجنس البشري، الذي عادته هي كراهية الأعمال الجيدة وحسدها، تمكن بفنونه الماكرة من إثارة بارونات انكلترا ضده، لذلك اختل نظام الأشياء وفسد، حيث أنه بعدما اهتدى وكان يقدم التكفير إلى الكنيسة، هوجم من قبل الذين وقفوا إلى جانبه أثناء عدوانه ضد الكنيسة، واخيراً عندما ثار الخلاف بينه وبينهم، وبعد تعيين عدة أيام للتفاوض حول السلام، جرى ارسال مبعوثين خاصين إلينا، وبعد مناقشة القضية مطولاً معهم، وبعد تداول طويل وتمحيص كامل، كتبنا بوساطة المبعوثين أنفسهم، إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، وإلى أساقفة انكلترا، نأمرهم بأن يمنحوا عناية متواصلة ومساعدة مؤثرة، لإعادة السلام الحقيقي والوثام بين الفرقاء، ولإعلان أن جميع التكتلات والمؤامرات - إذا كان أي منها

قد تشكل منذ بداية نشوب الخلاف بين الملك والكهنة — هي ملغاة بوساطة السلطات الرسولية، ولمنع، تحت التهديد بعقوبة الحرمان الكنسي، أي واحد من اظهار مثل هذه المظاهر في المستقبل، والقيام بالوقت نفسه، بشكل لطيف ومؤثر بإنذار النبلاء والرجال ذوي المراتب في انكلترا، وأمرهم بالسعي بوساطة مؤشرات وبراهين واضحة، وبتقوى وتواضع، لعمل سلام مع الملك، وعندئذ إذا ما أرادوا طلب أي شيء منه، أن يسألوه ذلك، إنما ليس بشكل مهين، بل بتواضع، مراعين نحوه الاحترام الجدير بملك ومقدمين إليه الخدمات المعتادة، التي قدمها إليه هم وأجدادهم، ذلك أن الملك لا تجوز اهانتته من قبلهم من دون حكم، وأنهم بذلك يمكنهم هكذا الحصول بسهولة أكبر على الذي كان يسعون له، وقد طلبنا أيضاً، ونصحنا الملك المذكور، برسائلنا، وفرضنا على رئيس الأساقفة المذكور والأساقفة ليطلبوا منه، وليحذروه، وليكون الأمر بمثابة غفران له من ذنوبه، أن يتولى معاملة النبلاء المتقدم ذكرهم بلطف، وأن يولي شكاويهم العادلة اهتماماً خاصاً، وبذلك يمكنهم أن يعلموا، وأن ينالوا السرور، أنه قد تغير نحو الأفضل، وأنه بهذه الوسائل يمكنهم هم وورثتهم أن يكونوا أكثر استعداداً، وأكثر إقبالاً على خدمته وخدمة ورثته، وأن يمنحهم ضماناً كاملاً بحرية الذهاب، والاقامة، والمغادرة، وأنه إذا حدث أنه لم يمكن ترتيب السلام فيما بينهم، فإنه يمكن للخلافات التي نشبت إيجاد حل لها وتسويتها في محكمة بلاطه بوساطة وكلائهم، ووفقاً لقوانين وأعراف المملكة، وحدث أنه قبل أن يعود الرسل مع هذه النصيحة الحكيمة والعادلة، أن قام هؤلاء البارونات بالتخلي كلياً عن يمينهم بالتابعة، (لأنه وإن قام الملك بشكل غير عادل بظلمهم، المتوجب عليهم أن لا يعملوا ضده ما عملوه، وأن يكونوا في آن واحد القاضي والمنفذ بالنسبة لقضيتهم، لأنه لا يجوز للأتباع التآمر بشكل مكشوف ضد مولاهم، ولا الفرسان ضد ملكهم) وتجروا بالاتحاد مع آخرين هم أعداءه

المكشوفين، على إثارة الحرب ضده، والاستيلاء على أراضيه بعد العيث فساداً فيها، وعلاوة على ذلك، لقد استولوا على مدينة لندن، التي هي عاصمة المملكة، حيث سلمت إليهم من خلال الخيانة، وفي الوقت نفسه، عندما عاد الرسل المذكورون، عرض الملك، بالتوافق مع وصايتنا، أن يظهر نحوهم عدالة صحيحة، لكنهم رفضوها، وحولوا أيديهم نحو اعتداءات أسوأ، بناء عليها توجه الملك نفسه، باسترعاء اهتمامنا، وعرض منحهم عدالة بحضورنا، والحق في تقدير هذه القضية عائد إلى حكمنا، وقد رفضوا هذا كلياً، ثم انه اقترح إليهم وجوب اختيار أربعة رجال بارعين من قبله ومن قبلهم من أجل أن يتمكن هؤلاء بالتعاون معنا، أن يضعوا نهاية للخلاف الذي نشب فيما بينهم، واعداداً أنه سيتولى قبل كل شيء إزالة جميع الاساءات، التي ربما وقعت وعرفتها انكلترا في أيامه، لكنهم رفضوا محاولة هذا، وأخيراً شرح الملك إليهم—أنه ما دامت المملكة عائدة إلى كنيسة روما هو لا يمكنه، ولا يجوز له، من دون وصايتنا الخاصة، القيام بأية تغييرات فيها تأتي مضرة بنا، ولذلك توجه مجدداً بالشكوى إلى مسامعنا، واضعاً نفسه ومملكته، مع كرامتها وحقوقها تحت حماية الكرسي الرسولي، وبما أنه لم يحصل على أي شيء بهذه الوسائل، سأل رئيس الأساقفة والأساقفة القيام بتنفيذ وصايتنا، والدفاع عن حق كنيسة روما، وحمايته وفقاً لشروط الامتيازات التي منحت للذين حملوا الصليب، وبالإضافة إلى هذا، عندما لم يوافقوا على أي من هذه الشروط، ولدى وجوده نفسه محروماً من كل عون ونصح، لم يتجرأ على رفض كل ما تقدموا بالمطالبة به، وبناء عليه لقد أرغم بوساطة القوة ومن خلال الخوف—الذي حتى أكثر الناس شجاعة عرضه للخضوع له—على الدخول باتفاقية معهم، هي لم تكن فقط شريرة ومنحطة، بل أيضاً غير قانونية، وغير عادلة، بل إنها تحط من كرامته ومن حقوقه وتزيلهما، وحسبنا أخبرنا الرب من خلال نبيه في قوله: «لقد عيتك على الناس وعلى المملكة، لأقتلع

وأهدم، ولأبني ولأزرع» ومن خلال نبي آخر قوله:

«ارم وفكك أغلال الشرور، ألق عنك أثقال الظلم»، لهذا لم نختر المرور مرور الكرام بهذه الوقاحة الشريرة، المتجهة نحو ازدراء الكرسي الرسولي، وإلى محق الحقوق الملكية، وإلى اهانة الأمة الانكليزية، وإلى تعريض قضية الصليب للخطر، لولا أن قمنا بوساطة سلطاتنا بنقض كل شيء استخرج من مثل هذا الأمير الذي حمل الصليب، مع أنه كان على استعداد للحفاظ عليهم، وبناء عليه نقوم نيابة عن الرب، الأب القدير، والابن، والروح القدس، وبوساطة سلطة رسوليته: بطرس وبولص، وبوساطة سلطتنا، وبناء على نصيحة إخواننا، بشجب، وبإدانة كاملة لاتفاقية من هذا النوع، ونمنع الملك المذكور، تحت انزال عقوبة الحرمان الكنسي به من الحفاظ على الصك، أو على الضمانات والقيود التي أعطيت من أجل الحفاظ عليه، ونمنع أيضاً البارونات ومن معهم من ارغام الملك على الحفاظ على الصك أو على الضمانات والقيود التي منحت للحفاظ عليه، ونلغي هذا الصك كلياً، ونزيله وكأنه لم يكن، وأن لا يكون له أية فعالية، ونحذر أياً كان، الخ، ومهما كان، الخ، صدر في أغنانو Agnano في الرابع والعشرين من آب، في السنة الثامنة عشرة لحبريتنا».

### البابا يلوم بارونات انكلترا من أجل اضطهادهم الملك

وبعدما ألغى البابا على هذه الصورة الامتيازات المتقدم ذكرها، كتب إلى بارونات انكلترا وفق الشروط التالية: «من انوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى نبلاء انكلترا، روح المشورة الأعقل، حبذا لو أنكم في اضطهادكم الذي تسرعتم في ممارسته ضد مولاكم الملك، أن التزمتم بعناية أكبر بيمينكم بالتبعية، واهتمتم بحقوق الكرسي المقدس، وبالامتيازات التي منحت إلى الذين حملوا الصليب، وبما أنكم من دون شك، لم تقوموا بإجراءات الادعاء بها عملتموه، ولذلك فإن

كل من شاهد ما فعلتموه يرفض العدوان، خاصة وأنكم بالنسبة لقضيتكم، قد جعلتم أنفسكم القضاة والمنفذين، مع أن الملك المذكور كان قد استعد لمنحكم وفرة من العدالة في بلاط محكمته، وذلك بقرار من نظرائكم، ووفقاً لقوانين وأعراف المملكة، أو بحضرتنا نحن الذين نمتلك القرار بهذه القضية، بموجب حق السلطة، أو بحضرة محكمين يجري اختيارهم من كلا الجانبين، حيث يقومون متحدين بالاستدعاء والمرافعة في هذه القضية معنا، وبما أنكم لم تحاولوا أية واحدة من هذه الخطط، رفع شكواه إلى مسامعنا، ووضع نفسه ومملكته مع جميع امتيازاتها وحقوقها، تحت حماية الكرسي الرسولي، وأعلن صراحة أنه بما أن السلطة على تلك المملكة هي عائدة إلى كنيسة روما، لا يمكنه — ولا يجوز له — إحداث أي تغيير يسبب الضرر لنا، وبناء على هذا وبعد رؤيتنا لنوع الاتفاقية التي عملت، وهي اتفاقية أرغمتموه بالعنف وبالتهديد على عملها، وهي على هذا شريرة ومنحطة، وكذلك غير قانونية وغير عادلة، ولذلك يتوجب بشكل مسوغ رفضها من قبل الجميع، وذلك لسبب رئيسي هو نوعية الوسائل التي استخدمت للحصول عليها، ونحن الذين نرى أنه لزاماً علينا تأمين المنافع الروحية وكذلك الدنيوية للملك وكذلك للمملكة، نأمر برسائلنا الرسولية هذه، وننصحكم باخلاص شامل، أن تلتزموا بفضيلة الضروريات، وأن تتخلوا من قبل أنفسكم عن هذه الاتفاقية التي من هذا النوع، وأن تقدموا تعويضات إلى الملك وإلى أتباعه من أجل الأذى والضرر الذي ألحقتم به، حتى إذا ماسكن بوساطة مؤشرات التقوى الواضحة من عندكم والتواضع، يكون وقتها من الممكن أن يقدم طواعية من قبل ذاته تنازلات ينبغي تقديمها بموجب حقوقه بالمنح، وللقيام بمثل هذا نحن أيضاً سوف نقنعه، لأننا، وإن كنا لانرغب بحرمانكم من حقوقكم، نرغب منه التوقف عن مضايقتكم، حتى لا تكون مملكة انكلترا، في ظل حكمنا، عرضة للظلم بوساطة أعراف شريرة، وإلزامات غير عادلة،

وكل ما يتقرر ويرسم في هذا المجال سوف يجري تثبيته واعتماده إلى الأبد، وبناء عليه، إن الذي يرغب بعدم هلاك أي إنسان، يمكنه أن يجعلكم تميلون للأخذ بتواضع بنصيحتنا الصحيحة وبأوامرنا، خشية أنكم إذا ماتصرفتم على العكس سوف تجدون أنفسكم وقد نزلتم إلى مضائق لا يمكنكم النجاة منها من دون الكثير من الاضطراب، ومع أننا لانستطيع الحديث عن القضايا الأخرى، لانستطيع إخفاء الخطر العظيم المحيق بجميع شؤون الصليب، الذي سوف يكون في خطر حقيقي، مالم نقم، بوساطة سلطاتنا الرسولية، معاً بإلغاء جميع الوعود التي استخرجت بالقوة من ذلك الملك، الذي حمل شارة الصليب، مع أنه يرغب بالحفاظ عليهم، وبناء عليه عندما سيمثل رؤساء أساقفة وأساقفة انكلترا أماناً، أثناء المجمع العام الذي سوف نعقده من أجل معالجة مسائل الكنيسة الأكثر إلحاحاً، أقدموا أنتم أيضاً على ارسال مراقبين موثمين للمثول أماناً، واعهدوا بأنفسكم من دون خوف إلى رعايتنا الخيرة، لأننا تحت نعمة الرب، سوف نعالج القضايا بإزالة كل الاساءات في مملكة انكلترا، وبذلك سيكون الملك راضياً وقانعاً بحقوقه العادلة و بكرامته وعزته، وأن يكون رجال الدين والشعب بشكل عام متمتعين بالسلام وبالامتيازات المستحقة لهم.

صدر في أغنانو في الرابع والعشرين من آب في السنة الثامنة عشرة من حبريتنا»، وبعدما —على كل حال— تسلموا هذه الرسائل، التي هي رسائل وعد ووعيد، لم يقلعوا عن أهدافهم، وذلك بسبب تصرفات الملك، وقاموا بمضايقته بحدّة أكبر وبشدة أعظم.

### استيلاء وليم دي ألبيني على إمرة قلعة روكستر

وكان في الوقت نفسه النبيل وليم دي ألبيني Albiney قد تلقى رسائل متوالية من البارونات في لندن، ولأنه تعرض للملامة بدرجات عالية بسبب تأخره عن القدوم إليهم، قام أخيراً في يوم عيد القديس

ميكائيل بشحن قلعته قلعة أوف بلفوير Belvoir بما يكفيها — لابل أكثر مما يكفيها — من جميع أنواع المؤن والسلاح، عهد بها إلى عناية رجال كانوا مخلصين له، ثم ذهب إلى لندن، حيث استقبل هناك من قبل البارونات بكثير من البهجة، وقد قاموا على الفور باعلامه بخطة كانوا قد قرروها، وقد قضت باغلاق الطريق ضد الملك، وبذلك لن يكون أي طريق مفتوح أمامه من أي اتجاه إذا ما رغب بإلقاء الحصار على مدينة لندن، ولذلك انتخبوا قوة كبيرة وقوية من العساكر وعيّنوا وليم دي ألبيني لقيادتها، لأنه كان رجلاً شجاعاً ومجرباً في الحرب، وبعثوا به لاحتلال بلدة روكستر، وكانت قلعتها قد عهد بها قبل وقت قصير بثقة من الملك، إلى رئيس الأساقفة، الذي سلمها إلى أعداء الملك، وأنا لأعرف ماهي المشاعر التي دفعته إلى ذلك، الرب وحده يعرف ذلك، ولدى دخول أعداء الملك إليها، وجدوا المكان ليس فقط فارغاً من السلاح والمؤن، بل أيضاً من كل نوع من أنواع السلع والعتاد، وذلك باستثناء ما جلبوه معهم، مما خيب أمالهم وفكروا بمغادرتها، لكن وليم دي ألبيني شجعهم واستمر دوماً في رفع حماس أتباعه، ودفع أصحابه نحو أعمال الشجاعة، وقال إنه ليس قانونياً بالنسبة للفرسان التخلي، خشية أن يشكل ذلك وصمة عار لهم، ولكي لا يدعون بالتدريج باسم الفرسان الهاجرون، وبذلك تحمسوا كثيراً وتشجعوا بكلماته، فجلبوا إلى القلعة ما وجدوه من مؤن فقط في بلدة روكستر، وكان تعداد هؤلاء الفرسان مائة وأربعين فارساً، ومعهم جميع أتباعهم، ولم يتوفر لديهم الوقت لجمع الأسلاب من المنطقة المحيطة بهم، أو تجهيز أنفسهم بالمؤن من أي نوع.

### كيف حاصر الملك جون قلعة روكستر

بعدما استحوذ وليم دي ألبيني وأصحابه — كما ذكرنا أعلاه — على قلعة روكستر، وبعدما أقام الملك جون ثلاثة أشهر في جزيرة وايت،

أقلع من تلك الجزيرة وأبحر إلى دوفر، وإلى دوفر وصل إليه رسله الذين كان قد بعثهم إلى مناطق ما وراء البحر، وطلبوا معهم حشداً كبيراً من الفرسان والجنود، حتى أن كل من رآهم أصيب بالرعب والازدراء، فقد جاء من منطقتي بواتو وغسكوني النبيل ورجل الحرب سافاريك دي موليون Savaric de Maulion وقدم الأخوان غيوفري، وأولفـردـي بوتفيل Buteville تحيط بهما كتلة كبيرة من الفرسان والجنود، ووعدوا بتقديم طاعة مخلصـة الى الملك، وجاء من مقاطعتي: لوفين، وبرابانت الفرسان الشجعان: وولتر بوك Buck وجيرارد وغودسكال دي سوسين Godeschal de Soceinne مع ثلاث وحدات من الجنود، ورماة القسي الزيارة، الذين تعطشوا إلى لا شيء أكثر من تعطشهم إلى الدم البشري، وجاء إلى جانب هؤلاء إلى الملك من كونتية فلاندرز، ومن مناطق ما وراء البحر الأخرى كل الذين اشتهوا جشعاً أملاك الآخرين، وهكذا منحوا الملك أملاً كبيراً في الدفاع عن نفسه، حيث كان من قبل قد فقد كل أمل ، وما أن سمع جون بأن وليم دي ألبيني وأتباعه قد دخلوا إلى مدينة روكستر، حتى زحف إلى هناك، مع جميع الحشود التي تقدم ذكرها، بكل سرعة، وفي اليوم الثالث بعد دخولهم إلى القلعة، أغلق جميع طرقهم للخروج وحاصرهم، وقام على الفور بنصب مجانيقه وبقية آلات رميته، وضايق المحاصرين بشدة بزخات من الحجارة ومن الأسلحة الأخرى، وتحمل المحاصرون حملاتهم من دون إحجام، ودافعوا عن أنفسهم بشجاعة.

### وفاة هيوج دي بوفز

وجاء في الوقت نفسه هيوج دي بوفز، وكان فارساً شجاعاً، لكنه كان متكبراً، ورجلاً غير مستقيم، ووصل إلى ميناء كالي في فلاندرز لمساعدة ملك انكلترا، وركب في السفن في ذلك المكان، وأقلع مع جميع قواته، واتجه إلى دوفر، لكن ثارت عاصفة بشكل مفاجيء قبل أن يصل

إلى الميناء المقصود، وقد غرق وغرقوا جميعاً وابتلعهم البحر بأمواجه، وقذف جسد هيوج المذكور إلى الشاطئ مع عدد من الفرسان الآخرين والأتباع، وكان ذلك ليس بعيداً عن بلدة يارماوث Yarmouth وتم العثور في كل ميناء من شاطئ البحر ذاك على حشد كبير من أجساد الرجال والنساء حتى أن الهواء نفسه قد تلوث بنتانتهم، وجرى أيضاً العثور على عدد كبير من أجساد الأطفال، وكانوا قد غرقوا وهم في أسرهم، وقد جرفتهم المياه إلى الشاطئ، وكان ذلك منظرًا رهيباً لأعداد كبيرة من الناس، وقد تركوا—على كل حال جميعاً—ليجري التهامهم من قبل حيوانات البحر، ومن طيور الهواء، وبذلك لم ينج أحد من الأربعين ألف رجل وبقي حياً، فقد كان جميع هؤلاء الناس قد قدموا إلى انكلترا مع نسائهم وأطفالهم، مع نية طرد جميع السكان المحليين، وافنائهم تماماً، واستحواذ أراضيهم لأنفسهم بوساطة حق دائم، لأن الملك بطبائعه قد أعطى—كما قيل—إلى قائدهم هيوج دي بوفز المذكور كونتيتي: نورفولك Norfolk وسفولك Suffolk لكن نعمة الرب بدلت مقاصدهم نحو الأحسن، وعندما حملت أخبار فقدان هؤلاء الناس إلى الملك حزن بشكل مخيف، ولم يتناول طعاماً في ذلك اليوم، حتى المساء، وظل وكأن جنوناً قد تلبسه واستحوذ عليه.

### الاستيلاء على قلعة روكستر وسجن الذين أسروا هناك

وفي هذه الآونة، عندما علم بارونات انكلترا بأن وليم دي ألبيني وأصحابه باتوا محاصرين في قلعة روكستر، أصبحوا مضطربين كثيراً، لأنهم قبل أن يدخل وليم دي ألبيني إلى القلعة قد أقسموا على الانجيل المقدس أنه إذا حدث وحوصر، سوف يزحفون لرفع الحصار، ومن أجل أن يظهروا أنهم يعملون شيئاً يتماشى مع يمينهم واخلصهم بعهودهم، طاروا على الفور إلى السلاح، وشرعوا بالزحف نحو بلدة دبتفورد Deptford معتقدين أنهم سوف يرغمون الملك على رفع

الحصار، بغارة واحدة، ومع أنهم واجهوا ريحاً جنوبية لطيفة كانت تهب في وجوهم، وهي ريح لا تزعج بالعادة أحداً، تراجعوا وكأنهم قد واجهوا عدداً من الرجال المسلحين، وتخلوا عن الحملة دون انجازها، ومع أننا لا ينبغي أن نتراجع أمام كل هبة ريح، أداروا ظهورهم لوليم المحاصر مع أتباعه، وعادوا إلى مكنهم القديم، وعندما عادوا إلى مدينة لندن، تولوا تحصينها بشكل جيد، وشغلوا أنفسهم بالتسلي بلعبة النرد الخطيرة، وبشرب أفضل أنواع الخمرة التي اختاروها حسب تذوقهم، ومارسوا بقية أنواع الشرور، وتركوا رفاقهم المحاصرين في روكستر يتعرضون لخطر الموت، ويعانون من جميع أنواع المآسي، وعندما علم الملك كيف اقترب البارونات بأبهة كبيرة لرفع الحصار، وكيف أنهم تراجعوا بانحطاط وجبن، صار أكثر شجاعة، وبعث بمن يتولى جمع المؤن من جميع الاتجاهات لدعم الجيش، ولم يسمح في الوقت نفسه للمحاصرين بأي وقت للراحة في الليل والنهار، لأنه أثناء رمي الحجارة من المجانيق والعرادات والنشاب من قبل رجال القسي الزيارة والنبالة، قام الفرسان وأتباعهم بحملات متوالية، وكان إذا ما عانى بعضهم من التعب الجسدي، كان يخلفهم آخرون جدد بالهجوم، وبهذه التغييرات لم يحظ الذين كانوا تحت الحصار بأية راحة، وعندما يئس المحاصرون من وصول أية مساعدة من البارونات سعوا إلى تأخير تدميرهم الذاتي، لأنهم كانوا مرعوبين جداً من وحشية الملك، ولكي لا يموتوا من دون انتقام لأنفسهم أحدثوا مقتلة كبيرة في أوساط المهاجمين، وطال الحصار لعدة أيام بسبب عظم شجاعة وجرأة المحاصرين، الذين رموا حجراً مقابل كل حجر على العدو، واستخدموا سلاحاً ضد كل سلاح، من وراء الأسوار والشرافات، وأخيراً بعدما جرى قتل عدد كبير من القوات المهاجمة، وبعدما وجد الملك أن آلات قذفه كان لها تأثير خفيف، استخدم اللغامين، الذين تمكنوا في وقت قصير من هدم أجزاء كبيرة من الأسوار، وفي الوقت نفسه نقصت المؤن لدى المحاصرين، وقد أرغموا

على أكل الخيول، لا بل حتى على أكل مطاياهم الثمينة، واندفع جنود الملك الآن نحو الثلم في الأسوار، وبحملات شديدة متوالية أرغموا المحاصرين على التخلي عن القلعة، لكن ليس من دون خسائر كبيرة من جانبهم، ودخل المحاصرون إلى البرج وسط حملات جنود الملك، الذين دخلوا إلى القلعة من خلال الثلم، وقد تمكن وليم دي ألبيني مع جنوده—بعد قتله لكثير منهم—من إرغامهم على التخلي عنها، وهنا لجأ الملك إلى استخدام لغاميه ضد البرج، وبعد صعوبات جمة أحدثوا ثلثة في الأسوار، اتسعت لتستخدم من قبل المهاجمين، لكن أثناء استخدام جيشه وفق هذه الطريقة، غالباً ما أجبر جنوده على الانسحاب بسبب الخسائر التي لحقت بصفوفهم وأنزلت بهم من قبل المحاصرين، وأخيراً لم تبق لديهم أية مؤن، وبناء عليه رأى وليم دي ألبيني مع النبلاء الآخرين الذين كانوا معه أنه سيكون من العار بالنسبة لهم الموت جوعاً، في وقت لم يكن ممكناً فيه قهرهم في القتال، وبعد ما عقد اجتماعاً مع الآخرين في يوم عيد القديس أندرو، تركت الحامية—وهي تقريباً غير مصابة—القلعة، وذلك باستثناء فارس قد قتل بوساطة سهم، وقدم رجال الحامية، بعد المغادرة، أنفسهم إلى الملك، وقد استمر هذا الحصار لمدة ثلاث أشهر تقريباً، وكان الملك غاضباً كثيراً بسبب عدد العساكر الذين قتلوا، وكذلك بسبب المال الذي أنفقه على الحصار، وفي غضبه أمر بتعليق جميع النبلاء على المشانق، غير أن النييل سافاريك دي موليون Savaric de Mouleon وقف أمام الملك وقال له: «مولاي الملك إن حربنا لم تنته بعد، ولذلك عليك أن تقدر بدقة كيف يمكن أن تتقلب حظوظ القتال، لأنك إذا أمرت الآن بشنق هؤلاء الرجال، ربما يحدث أن يأسرني البارونات من أعدائنا، أو يأسرون آخرين من نبلاء جيشك، ويحتذون حدوك، فيقدمون على شنقنا، لذلك لا تدع هذا يحدث، ذلك أنه في مثل هذه الحالة ما من أحد سوف يقاتل من أجل قضيتك»، وعندها أصغى الملك، وهو مكره، لهذه النصيحة، ولنصائح

رجال حكماء آخرين، وبناء عليه جرى بناء على أوامره إرسال وليم دي ألبيني، ووليم أوف لانكستر، وو. W دي اينفورد Einfeld وتوماس دي مولتان Muletan ، وأوسبرت دي غيفارد Gyffard وأوسبرت دي بوبي Bobi وأودينل Odinal دي ألبيني مع نبلاء آخرين، إلى قلعة كورفي، ليوضعوا تحت حراسة مشددة ، أما روبرت دي كورن Chourn ، ورتشارد دي غيفارد Giffard مع توماس أوف لنكولن، فأمر بسجنهم في قلعة نوتنغهام، كما أمر بسجن آخرين منهم في أماكن أخرى، أما جميع الجنود الأسرى فأعطاهم إلى جنوده حتى ينالوا فديتهم، وذلك باستثناء بعض رجال القسي العقارة الذين قتلوا عدداً كبيراً من فرسانه وعساكره أثناء الحصار، حيث أمر بشنق هؤلاء، وبهذه الانتكاسة ضعفت قضية البارونات كثيراً.

### الحرمان الكنسي لبارونات انكلترا بشكل عام

ولدى رؤية البابا انوسنت في هذه الأيام أن البارونات العصاة لم يتوقفوا عن اضطهادهم للملك، قام بحرمانهم كنسياً، وعهد بتنفيذ هذا القرار إلى أسقف وينكستر، وإلى راعي دير ردنغ، وإلى باندولف نائب الشماس في كنيسة روما، بموجب الرسالة التالية: «من انوسنت، أسقف النخ، إلى ب. P. أسقف وينكستر، وراعي دير ردنغ، والمعلم باندولف، نائب الشماس في كنيسة روما، تمنيات ومباركات رسولية، لقد دهشنا كثيراً وغضبنا، لأن ابنا المحبوب كثيراً بالرب، جون الملك المشهور لانكلترا، مع أنه قدم ترضيات أكثر مما توقعنا إلى الرب والكنيسة، وخاصة إلى أحنينا رئيس أساقفة كانتربري وإلى أساقفته، فإن بعض هؤلاء لا يظهرون الاحترام المستحق — أو الاحترام بشكل مطلق — إلى شؤون الصليب المقدس، وإلى وصاية الكرسي الرسولي، وإلى يمينهم بالتابعة، ولم يقدموا العون، ولم يظهروا مشاعر طيبة نحو الملك المذكور، وبالوقوف ضد الاضطرابات في المملكة، التي هي

بموجب حق السلطة، عائدة إلى كنيسة روما، هذا إن لم يكونوا مطلعين، أو لنقل مشاركين في هذه المؤامرة الشريرة، لأنه غير محرر من وصمة المشاركة، الذي يخفق في التصدي للمعتدين، فكيف عمل هؤلاء الأساقفة المتقدم ذكرهم في الدفاع عن ميراث كنيسة روما؟ وكيف قاموا بحماية الذين يحملون الصليب؟ وعجباً كيف أنهم لا يعارضون بأنفسهم الذين يسعون إلى تدمير عبادة المسيح؟ فهؤلاء الرجال هم بدون شك أسوأ من المسلمين، بما أنهم يسعون لأن يطردوا من مملكته الرجل المأمول أن يقدم مساعدة إلى الأرض المقدسة، ولذلك فإن وقاحة مثل هؤلاء الناس، ينبغي أن لاتسود، ليس فقط لما تسببه من مخاطر لمملكة انكلترا، لا بل أيضاً لما تقود إليه في تدمير الممالك الأخرى، وفوق ذلك كله ما تؤدي إليه من تهديم جميع قضايا المسيح، وبناء عليه أقوم نيابة عن الرب القدير، الأب، والابن، والروح القدس، وبوساطة سلطات الرسولين: بطرس، وبولص، وبوساطة سلطاتنا الخاصة، بوضع أغلال الحرمان الكنسي على جميع الذين يتولون مضايقة الملك مع مملكة انكلترا، وكذلك على جميع الشركاء في الجرم، وعلى جميع المحرضين التابعين لهم، ونضع ممتلكاتهم تحت الحرمان اللاهوتي من شراكة المؤمنين، ونحن نأمر بدقة متناهية رئيس الأساقفة المذكور وأتباعه الأساقفة، بحكم فضيلة طاعتهم، أن يقوموا بشكل مهيب بإعلان قرارنا هذا في جميع أرجاء انكلترا، وأن يكون ذلك في كل يوم أحد، ويوم عيد وسط قرع النواقيس، والشموع مشتعلة، حتى يقوم البارونات المتقدم ذكرهم بتقديم ترضية إلى الملك حول خسائره، والإهانات التي ألحقوها به، وأن يعودوا بإخلاص إلى تأدية واجباتهم، ومن جانبنا نفرض أيضاً على جميع أتباع الملك المذكور، تقديم المساعدة لهذا الملك في مواجهة مثل هؤلاء المعتدين، فذلك سوف يكون تكفيراً عن ذنوبهم، وإذا ما أهمل أي أسقف تنفيذ أوامرننا، ليكن معلوماً بالنسبة له، أننا سوف نوقفه عن تأدية واجباته الأسقفية وسنسحب طاعة الذين تحتته، لأن من المشروع

أن الذين يهملون إطاعة الذين هم أعلى منهم والذين هم رؤساء لهم، أن لا تتم طاعتهم من قبل الذين هم أدنى منهم، وبناء عليه لا يجوز عدم تنفيذ الوصاية، أو تعطيلها من خلال تراخي أي واحد، وقد عهدنا إليكم بشؤون الحرمان الكنسي للبارونات المتقدم ذكرهم مع القضايا الأخرى المتعلقة بهذه الأعمال، وقوموا على الفور بوساطة رسائلنا الرسولية هذه، بتأجيل جميع مرافعات الشكاوي، والقيام بالاجراءات حسبما ترونه مناسباً، لكن إذا لم يعمل الجميع»، الخ.

### انتخاب المعلم سيمون لانغتون لكرسي يورك

وكان في هذه الآونة كهنة يورك منذ مدة طويلة من دون أسقف، لذلك حصلوا على إذن الملك واجتمعوا مع بعضهم لانتخاب واحد، ومع أنهم ضغط عليهم كثيراً وأغريوا من قبل الملك، لاستقبال وولتر دي غري Gray أسقف ووركستر، ليكون أسقفاً لهم، قاموا بسبب جهله برفضه، واستمروا في أعمال انتخابهم، فاختاروا سيمون لانغتون، الذي كان أخواً لرئيس أساقفة كانتربري، أملين أن ينالوا بعلمه الخطوة لدى الحبر الأعظم، لكن عندما بات خبر هذا الانتخاب معلوماً لدى الملك، بعث رسلاً إلى بلاط روما، وقام هؤلاء بحضرة مولانا البابا، بتقديم اعتراضات على الانتخاب، كما يلي: لقد أكدوا أن رئيس أساقفة كانتربري كان عدواً مكشوفاً لملك انكلترا، لأنه قدم التحريض للبارونات الانكليز للعمل ضد الملك المذكور، وأعطى موافقته على عملهم هكذا، وبناء عليه إذا ما جرت ترقية سيمون المذكور إلى مرتبة رئيس أساقفة يورك، وهو أخ لرئيس الأساقفة، فإن سلام الملك والمملكة لا يمكن أن يعيش طويلاً، وبعرضهم هذه الشكوى وأمثالها من الاعتراضات، أقنعوا البابا على الاتفاق معهم، ولذلك كتب إلى هيئة كهنة يورك كما يلي:

«من انونست، أسقف، الخ، عندما مثل المعلم لانغتون مؤخراً أمامنا

مع بعض الكهنة الآخرين من يورك، منعناه حرفياً من السعي للحصول على رئاسة أساقفة يورك، لوجود بعض الأسباب تمنعنا من السماح بذلك، وفيما يتعلق بما سمعه من كلمات منا، ذهب مع جميع الاحترام، واعداً باحترام هذا الأمر، ولذلك دهشنا، وغضبنا، كيف ان مطامحه أعمته، مع أنه يعرف أنه لا يمكن، بعد تحريمنا، وبعد وعده الصريح، أن ينتخب بشكل قانوني، وأن يعطي موافقته على مثل هذا الانتخاب، الذي وإن لم يعارضه أحد آخر، ينبغي أن نعهده لاغياً وفارغاً، وهذا يتوجب ألا يكون مناسبة لخطيئة جديدة في انكلترا، أسوأ من السالفة، ولكي لا تبقى كنيسة يورك مدة أطول من دون رئيس أساقفة لها، نقوم بناء على نصيحة إخواننا، بوساطة رسائلنا الرسولية هذه، فنأمركم ونفرض عليكم بكل دقة بموجب فضيلة طاعتكم، بعدم قبول هذا الانتخاب، ولأننا لا يجوز لنا—ولا ينبغي—تحمل إهانة وتأمير من هذا النوع، من دون أي تعليل أو تردد، عليكم ارسال بعض إخوانكم مع تفويض كامل للمشاركة في مجمعنا العام الذي اقترب موعده، وأن يظهروا أمامنا مع الأول من تشرين الثاني، ووقتها يمكن مع نصيحتنا انتخاب، أو طلب رجل موثم ليكون رئيساً لأساقفتكم، أو أننا سوف نقوم منذ ذلك الوقت أنفسنا بتزويدكم برئيس أساقفة موثم لكم، ولسوف نتولى بشكل جدي انزال العقوبة بكل مخالف أو معارض، إذا وجد أي مخالف أو معارض، وستكون عقوبتنا بموجب العقوبات القانونية، وإذا ما أعطى سيمون المتقدم ذكره موافقته على هذا الانتخاب، فإننا نرسم، كعقوبة لقبوله، أن يكون من الآن فصاعداً غير مؤهل، ولا يتمتع بالشرعية من الكرسي الرسولي، من أجل الانتخاب للمنصب الأسقفي، صدر في الثالث عشر من أيلول، في السنة الثامنة عشرة من بابويتنا».

تعلیق ستيفن رئيس أساقفة كانتربري

وبعد هذا مباشرة، توجه بطرس أسقف وينكستر، والمعلم باندولف، الصديق المقرب من مولانا البابا، شخصياً إلى رئيس أساقفة كانتربري، وأمره نيابة عن البابا المذكور، بأن يطلب من أساقفته المساعدين التابعين لكنيسة كانتربري القيام بنشر حكم الكرسي الرسولي، الذي كان قد صدر في روما ضد بارونات انكلترا بشكل عام، وأن يقوم هو شخصياً أيضاً بذلك، بما أن واجبه يفرض عليه الاعلان عن ذلك في جميع أرجاء أسقفيته كل يوم أحد ويوم عيد، وكان رئيس الأساقفة آنذاك قد صعد ظهر سفينة ليذهب إلى روما، لحضور المجمع هناك، ولذلك طلب تأجيل الموضوع حتى يتمكن من الاجتماع مع البابا والتحدث معه، وأكد بشكل ثابت، أنه بالنسبة لنشر القرار، هناك قرار ضمني قد صدر ونشر بالفعل ضد البارونات، وأنه لا يمكنه تعميم القرار الجديد بأي شكل من الأشكال حتى يعلم ما يرغب به الخبر الأعظم حول المسائل المتقدم ذكرها، بكلمة الفم، ولدى رؤية الوكيلين المعهود إليهما بهذه القضية، أن رئيس الأساقفة لم يطع أوامر البابا، قاما بوساطة السلطات المخولة إليهما، بتعليقه ومنعه من الدخول إلى الكنيسة، وممارسة الصلوات اللاهوتية، وقد قام بمراعاة هذا بكل تواضع، وذهب إلى روما بمثابة أسقف معلق، ووقتها قام أسقف وينكستر مع أخيه النائب باندولف بإعلان أن جميع بارونات انكلترا، الذين سعوا إلى طرد الملك من مملكته، هم محرومين كنسياً، ونشروا القرار، وتفوهوا به ضدهم كل يوم أحد، وكل يوم عيد، لكن بما أن ما من أحد منهم قد ذكر بالاسم في قرار البابا، لم يهتموا مطلقاً بالقرار المذكور، بل عدوه فارغاً وبدون تأثير.

### المجمع العام الذي عقده البابا انوسنت في روما

وفي العام نفسه، أي عام ١٢١٥م، جرى عقد مجمع مسكوني مقدس في شهر تشرين الثاني، في كنيسة المخلص المقدس في روما، وهي التي تعرف بالقسطنطينية، وقد ترأس مولانا البابا عليه في السنة الثامنة عشرة

من بابويته، وقد حضره أربعائة واثنى عشر أسقفياً، وكان بين الشخصيات الرئيسية بين هؤلاء بطيركي القسطنطينية والقدس، ولم يتمكن بطيريك أنطاكية من الحضور، لأنه حبس بمرض شديد، لكنه أرسل نائباً عنه هو أسقف طرطوس، ولأن بطيريك الاسكندرية كان تحت سلطان المسلمين، فقد بذل غاية جهده، حتى أرسل شماساً هو ابن عمه — خاله — مكانه، وكان هناك سبعة وسبعين رئيساً للأساقفة ومطراناً بين الحضور، وأكثر من ثمانمائة راعي دير ورئيس رهبان، وأما وكلاء رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، وهيئات الكهنة، الذين كانوا غياباً، فعددهم ليس معروفاً، وكان أيضاً بين الحضور حشد كبير من السفراء من لدن امبراطور القسطنطينية، وملك صقلية، التي انتخب امبراطوراً لروما، ومن انكلترا، وهنغاريا، والقدس، وقبرص، وأراغون، مع أمراء آخرين، ونبلاء، وأناس من مدن ومن أماكن أخرى.

وعندما اجتمع كل هؤلاء في المكان الذي تقدم ذكره أعلاه، ووفقاً لعادات المجامع المسكونية أخذ كل واحد مكانه وفقاً لمرتبه، ألقى البابا أولاً خطاباً تشجيعياً، ثم تبع ذلك قراءة الستين بنداً على المجمع كله، وقد بدت هذه البنود لبعضهم موافقة، ومملة لآخرين، وشرع أخيراً يبشر حول شؤون الصليب، واخضاع الأرض المقدسة، وقد أضاف مايلي:

«فضلاً عن هذا، مامن شيء قد حذف بالنسبة لقضية صليب المسيح، وإنما إرادتنا وأمرنا أن يقوم البطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان مع الآخرين المعهود إليهم بالمسائل الروحية، بعرض موضوع الصليب إلى الناس الذين هم تحت رعايتهم، وإني اتضرع باسم الأب والابن والروح القدس، الإله الواحد وحده، والأبدي، إلى الملوك، والدوقات، والأمراء، والمركيزات، والايالات،

والبارونات، والنبلاء الآخرين، وإلى مجتمعات المدن، والبلدات،  
والقرى، أنهم إذا كانوا لا يستطيعون الذهاب شخصياً لتقديم المساعدة  
إلى الأرض المقدسة، أن يقوموا بتجهيز عدد مناسب من العساكر مع  
جميع العتاد الضروري لمدة ثلاث سنوات، وذلك وفقاً لوسائلهم، وهذا  
مقابل اعفائهم من ذنوبهم، حسبما جرى التعبير عن ذلك في الرسائل  
العامّة، وإرادتنا أيضاً موجهة إلى الذين يبنون السفن من أجل هذا  
الهدف حيث أنهم سينالون نصيبهم من هذا الإغناء من الذنوب، لكن  
بالنسبة لهؤلاء الذين يرفضون، إذا وجد مثل هذا جاحدون، فإننا نعلن  
من جانبنا، أنهم من المؤكد سوف يدفعون الحساب لنا في يوم الحساب  
العسير، للقاضي الصارم، وعليهم أن يقدرُوا، قبل أن يقوموا بالرفض،  
بأية فرصة من الخلاص سوف يكونون قادرين بها على الظهور أمام  
الرب الواحد، والابن الوحيد الوليد للرب، الذي إلى يديه عهد الأب  
بجميع الأشياء، وذلك إذا ما رفضوا خدمة ذلك المصلوب الوحيد، في  
خدماتهم الصحيحة، الذي بموجب عطائه هم مستحودون على الحياة،  
والذي هم بلطفه مدعومين، وبدمه قد جرى انقاذهم، ونحن من جانبنا  
نرغب في ضرب مثل للآخرين، من أجل هذه الأعمال، حيث سندفع  
ونمنح ثلاثين ألف باوند، إلى جانب أسطول، سوف نزود به الذين  
يريدون العبور من هذه المدينة، ومن المناطق المجاورة، وعلاوة على ذلك  
لقد عيّنا لإنجاز هذا، ثلاثة آلاف مارك من الفضة، وهي التي بقيت  
لدينا من صدقات بعض ذوي الإيمان الصحيح، وبما أننا نرغب في أن  
يشارك الأساقفة الآخرين للكنائس، وكذلك رجال الدين بشكل عام،  
في كل من فضيلة ذلك وثوابه، رسمنا بأن يسهموا جميعاً مع كل الناس  
العاديين والأساقفة، من أجل مساعدة الأرض المقدسة بجزء من  
عشرين من مواردهم اللاهوتية لمدة ثلاثة أعوام، ويستثنى من ذلك  
الذين حملوا الصليب، والذين على نية حمله، وقد انطلقوا نحو الأرض  
المقدسة شخصياً، ونحن مع إخواننا من الكرادلة في كنيسة روما

المقدسة، سوف ندفع عشر كامل من مواردنا، وتقضي أوامرنا أيضاً، بأن يبقى جميع رجال الدين والعلمانيين، بعد حملهم للصليب، آمنين تحت حمايتنا، وتحت حماية القديس بطرس، وأيضاً تحت حماية رؤساء الأساقفة والأساقفة وجميع كهنة كنيسة الرب، وأن تكون ممتلكاتهم أيضاً كما هي مرتبة، وتبقى كذلك دون أن تلمس أو تتعرض للاضطراب، وذلك حتى تاريخ الحصول على معلومات مؤكدة تتضمن خبر موتهم أو عودتهم، وإذا صدف وكان واحد من سيذهب في هذه الصليبية مرتباً بيمين دفع فائدة، فإن المقرضين سوف يكونون مرغمين بوساطة السلطات اللاهوتية على إعفائهم من يمينهم، وأن يتمنعوا عن استخراج الربا منهم، ونحن نشمل بهذا القرار نفسه اليهود بوساطة السلطات المدنية، وذلك حتى يقتنعوا بفعل ذلك، وعلاوة على ذلك ليكن معلوماً أن أساقفة الكنيسة الذين يهملون منح العدالة إلى الصليبيين، أو إلى وكلائهم، أو إلى أسرهم، سوف يواجهون عقوبات حادة، وفضلاً على ماتقدم، لقد قررنا —بناء على نصيحة رجال عقلاء— أن الذين سوف يحملون الصليب هكذا، عليهم أن يعدوا أنفسهم للاحتشاد في حزيران المقبل، والذين منهم قد قرروا العبور بالبحر عليهم الاحتشاد في مملكة صقلية، وآخرون في بروندسيوم Brundisium وبعضهم الآخر في مرسيليا، وهي المكان الذي قررنا، تحت احسان الرب، أن نكون فيه حاضرين، حتى يمكن بوساطة مساعدتنا ورأينا، للجيش الصليبي أن ينتظم بشكل صحيح، ومن ثم ينطلق مع تبريكات الرب والكرسي الرسولي، ونحن نعهد إلى رحمة الرب القدير، وإلى سلطات الرسولين المباركين: بطرس، وبولص، ونحن نمح بفضل السلطة التي أضفاها الرب علينا —مع أننا لانستحق ذلك، وهي سلطة الحل والربط— كل الذين انخرطوا في هذا العمل شخصياً، وعلى حسابهم الذاتي، عفواً كاملاً عن ذنوبهم التي سوف يكونون حقاً نادمين عليها من قلوبهم، والتي سوف يعملون اعترافاً بها، وكثواب على ذلك نحن نعد زيادة في

خلاص أبدي، وإلى الذين لا يأتون شخصياً للمشاركة، بل يرسلون على حسابهم أشخاصاً موثمين، وفقاً لإمكاناتهم، وأيضاً إلى الذين يأتون شخصياً، على حساب الآخرين، إننا مع ذلك نمنح عفواً عاماً عن ذنوبهم، وإنها إرادتنا أن يشمل هذا الغفران، الذين سوف يزودون من ممتلكاتهم الخاصة بعتاد خاص ومؤن لمساعدة تلك البلاد المذكورة، أو يقدمون نصائح معقولة، ومساعدات حول القضايا المتقدمة ذكرها، وبالنسبة إلى جميع الذين سيذهبون في هذه الحملة، يضيفي هذا المجمع المقدس والمسكوني عليهم نعمة صلواته ورغباته وأمانيه الطيبة، من أجل أن يملكوا بشكل أفضل، خلاصاً دائماً، آمين».

### الاثم الذي عمل في روما ضدّ ستيفن رئيس أساقفة كانتربري

برز في هذا المجمع راعي دير بولين Beaulien والفرسان توماس هاردنغتون Hardington وغيوفري دي كروكومب Crawcombe بمثابة وكلاء عن ملك انكلترا، ضدّ رئيس أساقفة كانتربري، واتهموه بشكل معلن بالتعاون مع البارونات الانكليز، وأكدوا أنه أبدي نحوهم التعاطف، وقدم النصيحة إلى البارونات المذكورين في محاولتهم لطرد الملك المذكور من عرش مملكته، ومع أنه تسلم رسائل من الكرسي الرسولي، تأمره بموجب الملامة اللاهوتية أن يوقف النبلاء عن اضطهادهم للملك، رفض أن يفعل ذلك، ولذلك جرى تعليقه من قبل أسقف وينكستر ورفاقه، ومنعه عن أداء الخدمات اللاهوتية، ومن دخول الكنيسة، ثم إنه بادر مسرعاً للقدوم إلى هذا المجمع، وبذلك أعطى برهاناً أظهر فيه نفسه أنه متمرد ضدّ الأوامر الرسولية، ولدى سماع رئيس الأساقفة لهذه الاتهامات ضده مع اتهامات أخرى، تصرف على الفور وكأنه قد أدين، واضطرب كثيراً، ولم يعط جواباً، سوى أنه طلب سحب التعليق، ويقال بأن البابا، عمل وهو مغضب هذه الاجابة قائلاً:

«إعلم يا أخانا، بحق القديس بطرس، إنك لن تحصل بسهولة على التحليل منا، بعدما أنزلت مثل هذا الأذى الكثير، ليس فقط بملك انكلترا، بل بكنيسة روما أيضاً، ولسوف نقوم بعد التداول مع إخواننا بتقرير كيف سنعاقب مثل هذه الخطيئة المتهورة»، وقام بعدما تناقش حول المسألة مع كرادلته بتثبيت قرار العقوبة الصادر ضد رئيس الأساقفة، بموجب الرسالة المكتوبة التالية:

### تثبيت تعليق رئيس الأساقفة المذكور

«من انوسنت الأسقف إلى جميع الأساقفة المساعدين في كنيسة كانتربري، تحيات، نحن نود أن يكون معلوماً من قبلكم جميعاً بشكل عام، أننا قد وافقنا على قرار التعليق الذي تفوه به أخانا المجل ب. أسقف وينكستر، وأخانا ب. نائب الشماس المقرب منا والمنتخب لأسقفية نورويك، بموجب السلطات الرسولية، ضد ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، ونأمر بمراعاة هذا القرار وتطبيقه بدقة حتى يستحق رئيس الأساقفة المذكور — الذي طبق القرار على نفسه بكل تواضع — تحريره منه، على أن يقدم ضماناً تبعاً لنموذج الكنيسة، ووفقاً لقرارات الالتزام المفروضة على الآخرين، وبناء عليه إننا نأمركم بموجب هذه الرسائل الرسولية مع جميع الإخوان لديكم، أن تقوموا أنتم الأساقفة بمراعاة القرار المتقدم ذكره وتطبيقه، وأن لا تظهروا في الوقت نفسه أية طاعة لرئيس الأساقفة المذكور. صدر في اللاتيران في الرابع من تشرين الثاني هذا».

وبعد هذا قدم كهنة يورك المعلم سيمون لانغتون إلى البابا، طالبين تثبيت انتخابه، لكن البابا قال لهم:

«اعلموا أننا لانعدّه منتخباً، لأننا لعدة أسباب لن نسمح له بالترقية إلى مثل هذه المرتبة العالية، وبسبب أن ذلك الانتخاب قد عمل معاكساً

لتحريمنا، فإننا نلغيه كلياً، وندينه إلى الأبد، وإن قرارنا يقضي أنه غير لائق شرعياً لأن ينتخب لمثل هذا المنصب الكهنوتي الرفيع من دون تحلة من الكرسي الرسولي»، وإثر إلغاء هذا الانتخاب، أمر البابا الكهنة بالقيام بإجراءات انتخاب آخر، وإذا لم يفعلوا ذلك هو سيقوم بتزويدهم برئيس أساقفة مناسب لهم، وبناء عليه قام الكهنة، بموجب التوجيه الذي تلقوه، بانتخاب وولترغري أسقف ووركستر، وذلك بسبب — كما قالوا — نقاوته من الشهوات الجسدية، لأنه استمر بالنقاء منذ ولادته حتى ذلك التاريخ، وعلى هذا أجاهم البابا المذكور:

«بحق القديس بطرس الطهارة فضيلة عظيمة، ونحن نمنحكم إياه»، ولهذا بعدما تسلم الأسقف المذكور الطيلسان، عاد إلى انكلترا، بعدما ربط نفسه، بدفع مبلغ عشرة آلاف باوند من النقود الاستيرلينية إلى بلاط روما، وبعدها أنجز الفارسان: توماس هاردنغتون، وغيوفري دي كروكومب مهمتها على هذه الصورة، عادا إلى انكلترا، وذهبا إلى الملك، الذي — كما تحدثنا من قبل — كان قد أخضع قلعة روكستر، وقد قصده لإخباره بالأخبار الموافقة، وفرح الملك كثيراً في عقله، عندما سمع بأن بارونات انكلترا، قد حرموا كنسياً، وأن رئيس أساقفة كانتبري قد جرى تعليقه، وأن وولتر دي غري قد جرت ترقيته إلى رئاسة أساقفة يورك، وأنه يمكنه أن يرتب الأمور، حسبما يشاء في قلعة روكستر، وبناء عليه قوض معسكره، وسار مسرعاً نحو كنيسة القديس ألبان، ولدى وصوله إلى ذلك المكان، مضى إلى بيت هيئة الكهنة، وبحضور الرهبان، أمر بقراءة الرسائل حول تعليق رئيس أساقفة كانتبري وطالب على الفور من رجال المجمع الديرى تثبيت التعليق المذكور بأختامهم، ومن ثم إرساله إلى كنائس انكلترا، وإلى الدير، وكذلك إلى الكاتدرائيات، ليتم نشره، ويصبح معروفاً من قبل الناس، وإثر انتهاء هيئة الكهنة من هذا العمل، ذهب مع عدد قليل من

مستشاريه إلى داخل الدير، وعمل على إبداع خطط للإطاحة بأعدائه، ورتب الأمور من أجل الدفع للأجانب الذين كانوا يقاتلون تحت قيادته، وبعد ذلك قام الملك بتوزيع جيشه إلى قسمين، ليقوم الشطر الأول بمهمة أعمال إنهاء اضطراب البارونات الذين كانوا مستقرين في مدينة لندن، في حين يتولى الشطر الثاني الذهاب تحت قيادته إلى الأجزاء الشمالية من انكلترا ليقوم بالعيث فسادا بالمنطقة كلها بالنار وبالسيف، ووقعت هذه الأحداث في كنيسة القديس ألبان، في العشرين من كانون الأول، وكان القادة الذين جرى تعيينهم لقيادة الجيش الذي تركه خلفه هم: وليم إيرل أوف سالسبري، وهو أخوه، وفالكاسيوس Fal-kasius وكان رجلاً خبيراً بالحرب، وسافاريل دي موليون مع جنود بواتو، ووليم بريوير Briwere مع جميع قواته، وولتر الذي لقبه بوك Buck وهو الذي قاد البرابانتين، وكان هناك آخرون إلى جانبهم، حذفت ذكر أسمائهم.

### كيف زحف الملك جون إلى الأجزاء الشمالية من انكلترا وعاث فساداً في تلك المنطقة

ثم غادر الملك جون بلدة القديس ألبان، وزحف نحو الشمال، واصطحب معه: وليم إيرل أوف ألبمارل Albemarle وفيليب دي ألبيني، وجون مارشال، والقادة من مناطق ما وراء البحر: جيرارد دي سوتنغن Sotengaine وغودسيشال Godeschal مع الفلمنكيين، ورجال قسي زيارة مع أناس خارجين على القانون، ممن لا يخافون الرب، أو يقيمون تقديراً لأنسان، وقد استراح قليلاً في تلك الليلة في دنستيل Dunstable لكنه استأنف زحفه قبل انبلاج ضوء النهار باتجاه نورثامبتون ونشر قواته للقيام باحراق بيوت وأبنية البارونات، حيث نهبهم وسلبهم كل ما كان فيهم من سلع ومواشي، وبذلك دمر كل شيء جاء في طريقه، وأعطى مشهداً مرعباً لكل من شاهده، وحيث أن

النهار لم يقنع شرور الملك وشهوته لتدمير الممتلكات، أمر محرقه بإلقاء النار في الأسيجة، والبلدات أثناء زحفه، حتى يمتع ناظريه بمشاهد الاتلاف التي لحقت بأعدائه، وأنه بوساطة السلب يمكنه أن يدعم عملاءه الأشرار في أعماله الظالمة، واتخذ جميع السكان من جميع الأوضاع والحالات والمراتب، الذين لم يلجأوا إلى ساحات الكنائس، أسرى، وبعد تعريضهم للعذاب أرغموا على دفع أتوات ثقيلة، وكان شحن القلاع الذين تركوا مسؤولين عن حصون البارونات، عندما سمعوا باقتراب الملك، غادروا قلاعهم المتعذر احتلالها وهربوا إلى أماكن سرية، تاركين مؤنهم، ومختلف مخزوناتهم بمثابة غنيمة إلى أعدائهم القادمين، ووضع الملك أتباعه في هذه القلاع الفارغة، ووفق هذه الطريقة زحف مع أتباعه الأشرار إلى نوتنغهام.

### أعمال السلب والنهب التي اقترفها جيشه

#### في الجزء الجنوبي من انكلترا

وفي الوقت نفسه، كان وليم إيرل أوف سالسبري وفالكاسيوس مع العساكر التي تقدم ذكرها أعلاه، وهي التي تركها الملك معها في بلدة سانت ألبان، قد أمرا ولاية قلاع: ويندسور، وهارتفورد، وبيركهامبستد، أن يمرؤا مع كتلة كبيرة من الجنء من أمام مدينة لندن، ثم أن يعاودوا المرور لمراقبة البارونات ومضايقتهم، وللسعي لقطع المؤن والموارد عنهم، وبعد هذا نقلوا أنفسهم إلى كونتيات: اسكس، وهارتفورد، ومدلسكس، وكمبرءج، وهنتنءون، وجمعوا الأسلاب، وقاموا بأعمال النهب، وفرضوا غرامات على البلدات، وأخذوا أسرى من السكان، وأحرقوا أبنية البارونات، وأحرقوا الحدائق والحظائر، وقطعوا الأشجار في البساتين، ونشروا النار حتى ضواحي لندن، وحملوا معهم كميات هائلة من المنهوبات، وعندما قدم المراسلون من مختلف الأماكن يروون للبارونات جميع هذا، نظر واحدهم نحو الآخر وقال: «الرب أعطى،

والرب انتزع وأخذ»، الخ وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني من هذا العام استولى فالكاسيوس على بلدة هامسليب Hamslope (لعلها هونسلو Hounslow) وكانت عائدة إلى وليم مودوت Moudut وجرى في اليوم نفسه الاستيلاء على قلعة تونبرج، وكانت ملكاً لايرل كلير، والذي تولى ذلك هي قوات شحنة قلعة روكستر، ووصل إثر ذلك مباشرة فالكاسيوس إلى قلعة بدفورد Bedford وطالب بتسليم القلعة من حاميتها، وحصلت الحامية على هدنة سبعة أيام، ولدى عدم تلقيها أية مساعدة من مولاها وليم دي بوشامب Beauchamp خلال ذلك الوقت، استسلمت الحامية وسلمت القلعة إلى فالكاسيوس المذكور في اليوم الثاني من كانون أول.

### استسلام قلعة بيلفيور إلى الملك

عام ١٢١٦م، كان هو العام الثامن عشر من حكم الملك جون، ففي يوم عيد الميلاد كان في قلعة نوتنغهام، وقد نقل في اليوم التالي معسكره وارتحل فوصل إلى بلدة لانغر Langer حيث أمضى الليل هناك، وأرسل في الصباح رسلاً خاصين ومع تهديدات طالب بتسليم قلعة بيلفيور Belvoir من حاميتها، وكانت القلعة تحت عهدة نيقولا، وهو كاهن وابن لوليم دي ألبيني، مع الفارسين: وليم ستدهام Stud-ham وهيوج دي تشارنيل Charneles الذي سأل على الفور عن رأي رفاقه الفرسان وأتباعه، عما ينبغي فعله، لأنهم أخبروا من قبل رسل الملك على لسانه، أنه إذا ما تسلم إشارة واحدة عن رفضهم التسليم، فإن وليم دي ألبيني سوف لن يأكل ثانية، بل سوف يموت بشكل مهين، وعلى هذا كان وضع المحاصرين حرجاً من جميع الجوانب، ولم يعرفوا ما الذي عليهم أن يفعلوه، وبعد طول وقت أشار الجميع ووافقوا على انقاذ مولاهم من مية تعيسة، بتسليم القلعة، بدلاً من البقاء فيها، ومن ثم يفقدون مولاهم وبعد ذلك القلعة، ثم أخذ

يقولادي ألبيني، وهيوج دي تشارنيل مفاتيح القلعة معها وذهبا إلى الملك في لانغر، وسلم القلعة إليه على شرط أن يتعامل بشكل رحيم مع مولاهم، وأن يبقيا هما نفسيهما آمنين تحت حمايته، وبناء عليه جاء الملك في اليوم التالي إلى القلعة، وكان اليوم هو يوم عيد القديس جون الانجيلي، وبعدها تسلمها الملك عهد بها إلى غيوفري وأوليفردي بوتفيل Buteville وكانا أخوين قدما من بواتو، وبعدها أقسم الجميع له يمين التابعة ويمين الطاعة المخلصة، منحهم رسائله موثقة، ضمن فيها لهم أماناً على جميع ممتلكاتهم.

### أنواع العذاب التي عانى منها الشعب المسيحي

وقدم في الوقت نفسه شطر من جيش الملك إلى دوفنغتون، وكانت بلدة عائدة إلى جون دي لاسي، وقد وجدها الجنود غير مدافع عنها، فهدموها إلى الأرض، بأمر من الملك، وتوزع بعد هذا، هذا الجيش الشرير، وزحف نحو المقطاعات الشمالية، حيث أحرق الأبنية العائدة إلى البارونات، وسلب مواشيهم، ونهب ممتلكاتهم، ودمر كل شيء وصل إليه بالسيف، وتغطي وجه الأرض كلها بأطراف هؤلاء الشياطين، مثل الجراد الذي يتجمع من مناطق نائية لاقتلاع كل شيء من على وجه الأرض من البشر إلى المواشي، لأنهم كانوا يسعون هنا وهناك بسيوف مجردة، وخناجر مكشوفة، وقد نهبوا ودمروا البلدات، والبيوت، والأسيجة، والكنائس، ونهبوا كل انسان، ولم يوفروا لامرأة ولا طفل، وكانوا حيثما وجدوا أعداء الملك سجنوهم وغلوهم بالسلاسل، وأرغموهم على دفع غرامات ثقيلة، حتى الكهنة، عندما كانوا واقفين أمام المذابح نفسها، مع صليب الرب بأيديهم، وهم يرتدون الأردية المقدسة، جرى اعتقالهم، وتعذيبهم، وسلبهم، ومعاملتهم بالسوء، ولم يعد هناك لا أسقف، ولا كاهن ولا قسيس ليصب الزيت أو الخمرة على جراحتهم، وأنزلوا عذاباً مشابهاً بالفرسان وبالآخرين من

كل وضع من الأوضاع، وعلقوا بعضهم من أوساطهم، وبعضهم من أقدامهم ومن أرجلهم، وبعضهم من أيديهم، وبعضهم من أصابعهم وأذرعهم، ثم رموا ملحاً ممزوجاً بالخل في أعين هؤلاء التعساء، غير آخذين بعين التقدير أنهم خلقوا وفق صورة الرب، وكانوا متميزين بحملهم لاسم مسيحين، ووضعوا آخرين فوق مراجل أو مشاوي، على نار فحم حامية، ثم قاموا بتغطيس أجسادهم المشوية بمياه باردة، وبذلك قتلوهم، وأثناء عمليات التعذيب كان إذا صرخ بعض هؤلاء التعساء بصرخات مؤلمة، وبأنات مرعبة، لم يكن هناك من أظهر نحوهم أية رحمة، ولم يكن هناك من شيء يقنع معذبيهم ويرضيهم غير المال، وقام عدد كبير بإعطاء جميع مقتنياتهم الدنيوية إلى معذبيهم، ومع ذلك لم يصدقوهم عندما أعطوهم كل شيء، أما الذين لم يمتلكوا شيئاً، فقد أعطوهم كثيراً من الوعود، من أجل أن يخففوا عنهم العذاب، أو على الأقل يوقفوه قليلاً، وهو العذاب الذي عانوا منه كثيراً، وكانت أعمال التعذيب هذه عامة ومنتشرة في جميع أرجاء انكلترا من قبل مواطنين آخرين، وتوقفت الأسواق وأعمال النقل والسفر، وعرضت البضائع للبيع في ساحات الكنائس فقط، وتوقفت أعمال الزراعة وتعطلت، وما من أحد تجرأ على الذهاب أبعد من حدود الكنائس، وفي هذه الآلام، التي تسببها البارونات، كان هؤلاء أنفسهم جالسين في لندن مثل نساء في الآم المخاض، مولين كل اهتمامهم إلى طعامهم وشرابهم، ومفكرين فقط بالملذات الجديدة التي يمكن أن توضع أمامهم، كي ترفع مشاعرهم بالعثيان، ولكي تعطيهم شهية جديدة، ومع أنهم تراخوا، لم ينم الملك حتى حصل على جميع أراضيتهم، وممتلكاتهم، وقسلاهم، وبلداتهم، وسلطاتهم من الجنوب حتى البحر الاسكوتلندي.

### حول الذين جرى تعيينهم حكماً للقلاع المستولى عليها

عندما أصبحت ممتلكات البارونات المتقدم ذكرها معروضة تحت

تصرف الملك، عهد الملك بالمنطقة الممتدة ما بين نهر تيز Tees وسكوتلندا مع الممتلكات والقلاع إلى هيوج دي باليول Baliol وفيليب دي أولكوت Ulcote ، وأعطاهما مايكفي من فرسان وجنود للدفاع عن ذلك الجزء من المنطقة، وعين في مدينة يورك روبرت أولبردج، وبرين دي لآيل، وغيفوري دي لاسي، وكلفهم بحراسة ممتلكات القلاع، وأعطاهم جنوداً، وأعطى إلى وليم إيرل ألبارل Albe-marle حكم قلعتي روكنغهام Rockingham وسوفي Sauvey وقلعة اسمها بيهام Biham ، كانت ملكاً لوليم دي كولفيل Cole-ville، وأسند إلى فالكاسيوس حكم قلاع: أكسفورد، ونورثامبتون، وبدفورد، وكمبردج، وأعطى إلى رالف لي تايري Tyris قلعة بيركها مبستد، وعهد بالوصاية على قلعة هارتفورد إلى وولتر دي غدرفيل Go-darville ، وكان فارساً يعمل في خدمة فالكاسيوس، وأعطى الملك إلى هؤلاء وإلى سواهم في جميع أرجاء انكلترا، بما أنهم يقدرون قيمة أجسادهم وممتلكاتهم وعهد، أن يقوموا بتدمير ممتلكات البارونات، أي أن يتولوا تدمير قلاعهم، وأبنيتهم، وبلداتهم، وحدائقهم، وحظائرهم، وبحيراتهم، وطواحينهم، ومثلها هو قد بدأ، أن يقوموا بانتهاء الأعمال والمهام بوحشية مساوية، ولأنهم لم يتجرأوا على معارضة أوامر الملك مارسوا من الوحشية بقدر ما عينه لهم، أي جعلوا أمام مشهد من الناس أجمعين بيوت البارونات وممتلكاتهم الأخرى منظرًا مخزناً، وهكذا عاد الملك من الشمال بعدما رتب كل شيء وفقاً لرغبته، وكان الذي بقي تحت سلطة البارونات هناك قلعتي مونتسوريل Montsorrel ، وقلعة أخرى كانت ملكاً لروبرت دي روز Roos في كونتية يورك، وبعدها أخضع تلك المنطقة بوساطة مذبحه مرعبة، سار على طول حدود ويلز إلى المقاطعات الجنوبية، وطبق وحشيته على جميع الذين عارضوه، وحاصر عدداً من القلاع واستولى عليها وانتزعها من أعدائه، وقد دمر بعضاً من هذه القلاع، وشحن بعضها الآخر

بجنوده.

## الحرمان الخاص للبارونات

وفي هذه الآونة جرى حرمان البارونات الانكليز -الذين سلف حرمانهم بشكل عام، من قبل الحبر الأعظم، لصالح ملك انكلترا -حرماناً فردياً، وفق الشروط التالية: «من انوسنت الأسقف، إلى راعي دير أبينغدون Abingdon ، ورئيس شامسة بواتو، والمعلم روبرت المسؤول الرسمي عن كنيسة نورويك، تحيات: نحن نرغب في أن تعلموا بأننا قمنا في مجتمعنا المسكوني الأخير، نيابة عن الرب القدير الأب، والابن، وروح القدس، وبوساطة سلطات الرسولين بطرس وبولص، وبوساطة سلطاتنا، بحرمان وبلعن بارونات انكلترا مع معاونيهم ومؤيديهم، بسبب اضطهادهم جون الملك الشهير للانكليز، الذي هو ملك قد حمل الصليب، والذي هو من الأتباع الاقطاعيين لكنيسة روما، ولمحاولتهم بوضعهم الحالي انتزاع المملكة منه، التي من المعروف أنها ملك للكنيسة الرومانية، وعلاوة على ذلك لقد حرمانا كنسيا ولعنا وشجبنا جميع الذين قدموا مساعدتهم أو أموالهم في سبيل مهاجمة تلك المملكة، أو لإعاقة الذين ذهبوا لمساعدة الملك المذكور، ونحن نضع أراضي البارونات المذكورين تحت الحرمان من شراكة المؤمنين في الكنيسة، وسوف نضربهم بأيدينا بشدة أعظم إن لم يقلعوا عن نواياهم، ذلك أنهم في هذا المجال أسوأ من المسلمين، وإنه قرارنا في أن أي كاهن من أي مرتبة أو طائفة، إذا ما تجرأ على خرق قراراتنا المذكورة في الحرمان الكنسي، والحرمان من شراكة المؤمنين، ليكن معلوماً لديه وليكن متأكداً بأنه سوف يضرب بسيف الحرمان من شراكة المؤمنين، وسوف يخلع من كل منصب ومرتبة، وبناء عليه، اننا نعهد إليكم وإلى اخلاصكم، بموجب هذه الرسائل الرسولية القيام بنشر القرارات المتقدم ذكرها في جميع انكلترا، والعمل بموجب

سلطاتنا على جعل هذه القرارات مرعية التنفيذ، دون تعرضها للخرق، أو إلى الترافع والشكوى ضدها بأي شكل من الأشكال، وعلاوة على ذلك، إن ارادتنا وأوامرنا تقضي أن تقوموا بموجب السلطات الرسولية بتوجيه الملامة بشكل علني، في جميع أرجاء انكلترا إلى بعض نبلاء انكلترا بحكم أنهم محرومين كنسياً، وأن تتدبروا بكل دقة تجنبهم من قبل الجميع ومقاطعتهم، وهؤلاء النبلاء هم الذين أعلن أسقف وينكستر، وابننا المحبوب كثيراً في الرب، راعي دير ردنغ، والمعلم باندولف، نائب الشماس التابع لنا، والصيديق المقرب إلينا، والمفوض من قبلنا، حرمانهم كنسياً شخصياً، بسبب أنهم وجدوهم مجرمين في المسائل المتقدم ذكرها، وهؤلاء هم: سكان لندن، الذين كانوا المحرضين الرئيسيين للجرائم المتقدم ذكرها، وروبرت فتز - وولتر، وس. S ايرل وينكستر، ور. R ابنه، وغ. G دي ماندفيل، وأخيه وليم، ور. R ايرل أوف كلير، وغ. G ابنه، وهـ. H . ايرل أوف هيرفورد، ور. R. دي بيرسي، وإ. E دي فيسكي، وج. له مفوض أوف شيلستر، ووليم دي ماوبري Mowbray، ووليم دي ألبيني، وو. W ابنه، ور. R دي روز، ووليم ابنه، وب. P دي بروز، ور. R دي كريسي Cressy ، وجون ابنه، ورالف فتز - روبرت، ور. R ايرل بيغود، وهـ. H ابنه، وروبرت دي وير، وفولك فتز - وارن، وو. W ماليت، وو. W دي مونتأكيوت، وو. W فتز - مارشال، وو. W دي بوشامب Beau-champ ، وس. S دي كايم، ور. R دي مونت بيغون، ونيقولا دي ستوتفيل، وآخرين أيضاً ورد ذكرهم بالاسم في المرسوم، بمثابة مجرمين لاقترافهم الجرائم المتقدم ذكرها مع معاونيهم ومموليهم، وعليكم في كل يوم أحد، ويوم عيد القيام بشكل مهيب باعادة نشر القرار المذكور والأمر بالتقيد به بكل دقة، وأن تضعوا مدينة لندن تحت الحرمان من شراكة المؤمنين في الكنيسة، وأن تضعوا جانباً جميع مرافعات الشكوى، وأن توقفوا جميع أحاديث التذمر والشكوى

والمعارضة، تحت طائلة إنزال العقوبات الكنسية وتطبيقها، ونحن نأمركم بأن تقوموا بشجب المعلم غير فيس Gervase مستشار لندن، بحكم كونه محروماً كنسياً، الذي - كما سمعنا من المحكمين المتقدم ذكرهم - كان أكثر المضطهدين علانية للملك المذكور ولأتباعه، وعليكم تهديده بعقوبات أكثر شدة ما لم يقيم بالابتعاد عن أتباعه المعتدين، وإذا لم يلتزم الجميع، الخ، صدر في اللاتيران في اليوم السادس عشر من كانون الأول، في السنة الثامنة عشرة من بابويتنا».

### تطبيق قرار العقوبات المتقدم ذكره

ولدى تسلم الرسائل التي تقدم ذكرها من قبل المحكمين، كتب البابا أيضاً إلى جميع كنائس انكلترا، وكاتدرائياتها، وديرتها يأمرهم بمايلي: «من انوسنت أسقف، الخ، نحن نأمركم بكل دقة بموجب وصايتنا هذه القيام بشجب بارونات انكلترا مع جميع معاونيهم ومحرضيهم بحكم كونهم محرومين كنسياً، وهم الذين قاموا باضطهاد مولاهم، الملك جون، ملك انكلترا، مع جميع الذين قدموا إليهم يد العون، أو المال، في سبيل الاستيلاء، أو الهجوم على المملكة المذكورة، أو عملوا على إعاقة الذين يذهبون لمساعدة الملك المذكور، وأن تعلنوا في أراضي البارونات المذكورين، بأنهم قد وضعوا تحت الحرمان اللاهوتي من شراكة المؤمنين، وأن تقوموا بشجب جميع البارونات الذين ورد ذكرهم أعلاه في رسالة مولانا البابا، وذلك بالاسم، بحكم كونهم محرومين كنسياً، مع جميع الآخرين الذين ورد ذكرهم بالاسم في قرار المحكمين المذكورين، وهم: وولتر دي نورتون، وأوسبرت فتر - آلان، وأولفر دي فوكس، وهـ. H دي بريبروك، ور. R دي روبل Ropele، وو. W دي هوبرجي Hobregge، وو. W دي موديت Mauduit ، وموريس دي غانت Gant، ور. R دي بيركلي Berkley، وآدم أوف لنكولن، ور. R دي ماندفيل، وو. W دي لانفالي Lanvaley، وفيليب فتر - جون،

ووليم دي تونتونا Twintuna، وو. W. دي هنتنغفيلد Huntingfield والاسكندر دي بونتون Puintune، ور. R. دي مونفكت Mun-fichet، ور. R. دي غريسلي Gresley، وغيفري مفوض أوف مينتون Meantune، وو. W. رئيس شامسة هيرفورد، وج. ل دي فيربي Fereby، ور. R. قسيس روبرت فترز-وولتر، والاسكندر دي سوتون Suttune، وو. W. دي كولفيل Coleville، ور. R. ابنه، وأوسبرت دي بوبي Bobi، وأوسبرت، وجيفارد، ونيقولا دي ستونفيل Stuteville، وتوماس دي ميولتون Muletune، وسكان لندن، والمعلم غ. G. المستشار، وأن أعلنوا بشكل عام بأن مدينة لندن موضوعة تحت الحرمان اللاهوتي من شراكة المؤمنين، وعليكم العمل على نشر قراري الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين، وتحديد اعلانها بشكل مهيب في كل يوم أحد ويوم عيد، في الكنائس وكذلك في الديره بحكم كونها مدارس أبرشية تابعة لكم، وأن تنفذوا بشكل دقيق كل بند من بنود الوصاية الرسولية، وأن ترعوها بشكل صحيح من قبل أنفسكم ومن جانبكم، حتى لا تتعرضوا لملامة الكنيسة، التي هي جديرة بالعصاة، وداعاً».

وعندما جرى نشر قراري الحرمان الكنسي، والحرمان من شراكة المؤمنين هذين في جميع أنحاء انكلترا، وأصبحا معروفين من قبل الجميع، عاملتها مدينة لندن وحدها من دون قبول لأن البارونات قرروا عدم الاعتراف بهما وتطبيقهما، وأن لا يقوم الكهنة بنشرهما، لأنهم قالوا بين أنفسهم، بأن الرسائل جميعها قد جرى الحصول عليها تحت تمثيل زائف، ولذلك هي بلا أهمية ولسبب رئيسي مهم آخر هو أن إدارة الشؤون المدنية ليست عائدة إلى البابا، لأن الرسول بطرس وخلفائه قد عهد إليهم من قبل الرب بإدارة القضايا الكنسية والاشراف عليها، ولذلك لم يقيموا أي تقدير على الاطلاق لقرار الحرمان من شراكة المؤمنين أو

لقرار الحرمان الكنسي، بل أقاموا العبادات في المدينة كلها، وكانوا يقرعون النواقيس، ويرتلون بأصوات مرتفعة.

### العيث فساداً في جزيرة إيلاي

وفي الوقت نفسه دخل وولتر بروس مع البرابانتين إلى جزيرة إيلاي من قرب هيريبي Herebeie ونهب جميع الكنائس في تلك الجزيرة، وأرغم السكان بأقسى أنواع العذاب على دفع غرامات ثقيلة، ولم يكن هناك مكان لالتهجاء يمكنهم أن يضعوا فيه ممتلكاتهم لابل حتى أنفسهم، للحماية من الخطر، لأن إيرل أوف سالسبري وفالكاسيوس مع سافاريك دي موليون قدموا من المناطق المجاورة، ودخلوا إلى الجزيرة بوساطة جسر ستوننتني Stunteney ، وعاثوا فساداً بالمنطقة كلها، ونهبوا الكنائس واستولوا على كل ممتلكاته النهابون المتقدم ذكرهم، ودخلوا أخيراً إلى الكنيسة الكاتدرائية بسيوف مجردة، وبعدها نهبوها تمكن رئيس المكان بصعوبة من انقاذها من الاحراق بدفع تسعة ماركات من الفضة، وجرى سحب اللورد ستيفن رايدل Ridel من الكنيسة بالقوة، وفقد كل الذي امتلكه من خيول، وكتب، وأثاث منزلي، وسلع، وأواني، وحفظ بصعوبة بالغة نفسه من التعذيب، بدفع مائة مارك، وجرى اعتقال خمسة عشر فارساً في هذه الجزيرة، مع آخرين من مختلف الأحوال والمراتب، وقام الأغنياء، والأكثر نبلاً من الفرسان بالنجاة عبر البحر، وهربوا بعد صعوبات كبيرة إلى لندن، وعلى كل حال لم يتمكن بعض هؤلاء من اكمال رحلتهم بسبب اخفاق خيولهم من الضعف، وأخذوا أسرى، وهكذا وقع كل شيء في الجزيرة بأيدي هؤلاء اللصوص من دون معارضة.

### كيف اختار بارونات انكلترا لويس ليكون ملكهم

أما وقد فقد بارونات انكلترا كل شيء له قيمة لديهم في الدنيا، كما

وضح من الرواية المتقدمة، وانعدم لديهم كل أمل بتحسن الأحوال، وباسترداد ما فقدوه بوسائطهم، فكانوا في مأزق ولم يعرفوا كيف يعملون، ولذلك قرروا أخيراً، بموافقة عامة اختيار رجل قوي ليكون ملكاً، يتمكنون بوسائله من استرداد ممتلكاتهم، وامتيازاتهم السالفة، وبعد تردد طويل حول قرار من عليهم اختياره، قرروا بالاجماع تعيين لويس بن فيليب الملك الفرنسي ليكون حاكمهم، وليرفعوه إلى عرش انكلترا، وكان دافعهم الأساسي لهذا هو أن أفراد حشد الأجانب الذين أحاط بهم ملك انكلترا نفسه، كان معظمهم تحت حكم لويس وأبيه، وإذا ما أمكن بوساطة امكانيات هذين الملكين حرمان جون من مساعدتهم، فإنه سيترك معزولاً في الداخل وفي الخارج، وسوف يترك لوحده، غير قادر على التصدي لهم ومقاومتهم، وكان هذا القرار مرضياً لهم جميعاً، فأرسلوا س. S ايرل أوف وينكسر، وروبرت فتز - وولتر كمبعوثين خاصين إلى الملك فيليب وإلى ابنه لويس مع رسائل مهمورة بأختام جميع البارونات، يلتمسون بحرارة من الملك الأب أن يرسل ابنه ليحكم في انكلترا، وأن يأتي الابن ليأخذ التاج، وأسرع هذان الرسولان وأوصلا على الفور الرسائل إلى الملك الفرنسي، وإلى ابنه لويس، لكن فيليب، بعدما قرأ الرسائل، وفهم مقاصدهم، أخبر الرسولين بجوابه بأنه لن يرسل ابنه قبل - من أجل ضمانه كبرى - أن يتسلم رهائن جيدين من البارونات يكون عددهم على الأقل أربعة وعشرين، من أكثر الناس تميزاً في جميع المملكة، وبعد سماع الرسولين لهذا، أسرعاً عائدتين بقدر ما هو ممكن، وذكرنا للبارونات الجواب الذي تلقياه، وعندما لم يجد البارونات حلاً آخر، أرسلوا الرهائن إلى الملك الفرنسي، وكان ذلك تلبية لرغباته وفق العدد الذي ورد ذكره أعلاه، ولدى وصول الرهائن، وضعوا في حبس أمين في كومبين، وتشجع لويس بهذا، فأعد عدته من أجل الحملة التي رغب بانجازها فوق كل شيء، لكن بما ان مغادرته للقيام بمثل هذه الحملة الصعبة كان لا يمكن

انجازها بسرعة، بعث قبل سفره رسلاً إلى البارونات لاعطائهم الأمل، وأيضاً لتجريب ولائهم، وكانت أسماء رسله هي: قسطلان القديس أوامر، وقسطلان أراس Arras وهيوج ثاكون Thacun ويوستاس دي نيفل Neville وبلدوين بريتيل Bretel و.و. دي وايمز wims وجايلزدي ميلون Melun و.و. دي بومونت Beau-mont، وجايلز دي هيرسي Hersi، وبيزت دي فيرسي Biset de Fers، ووصل هؤلاء جميعاً مع حاشية كبيرة من الفرسان والأتباع إلى نهر التيمز، وللسرور العظيم للبارونات، وصلوا إلى لندن في السابع والعشرين من شباط.

وأعطى في هذه السنة ستيفن رئيس أساقفة كانتربري ضمانات في روما بأنه سوف يلتزم بقرار البابا حول القضايا التي تقدم ذكرها، فجرى تحريره من تعليقه، إنما على شرط أنه لن يذهب إلى إنكلترا، قبل استرداد السلام الكامل بين الملك والبارونات.

### تجديد القرار الصادر ضد البارونات لتمردهم

وفي العام نفسه، رأى في أيام عيد الفصح راعي دير آينغدون Abingdon ورفاقه من المحكمين استمرار تمرد البارونات مع سكان لندن، فأنزلوا بهم ضربات أشد وأثقل، وتولوا إعادة القرار، وأعطوا أوامر إلى جميع الكنائس الديرية في إنكلترا لنشر القرار الذي كان قد صدر، وفق الصيغة التالية: «من هـ. H. بنعمة الرب راعي دير آينغدون، الخ في متابعة لتنفيذ أوامر الوصاية الرسولية المفروضة علينا، ومثلما كان مقصدنا في رسائلنا التي حولناها إليكم مؤخراً، نريد أن نفهمكم باستيعاب أكبر، أننا لم نقم هذه المرة فقط، بل غالباً ما أرسلنا رسائلنا تحتوي كلمات مرسوم مولانا البابا إلى هيئة كهنة القديس بولص، والقديس مارتن، وإلى غ. G. دي بوكلاندي Boclande عميد الكنيسة المذكور، وإلى المجمع الديرية للثالوث المقدس في لندن،

نأمرهم بوساطة السلطة الرسولية بالقيام على الفور بنشر قرارات الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين، وعدم خرق مراعاتها وتنفيذها، وهي قرارات الحرمان التي صدرت ضد مضطهدي الملك المذكور، وضد مدينة لندن، ذلك أنهم قاموا من دون احترام بعدم تنفيذ قرار الوصاية الرسولية، وتحذوها، وقاموا بتمرد برفض نشر القرارات المذكورة، لا بل حتى بعدم الاعتراف بها، وتولوا وهم على دراية ومعرفة بالمساهمة في الخدمات اللاهوتية مع أولئك المحرومين كنسياً، وبذلك عبروا في كل جانب من الجوانب على أنهم خارقين لمراسيم مولانا البابا ورافضين بشكل علني لوصايته، الأمر الذي نحن على دراية كاملة به بوساطة رسائل موثقة من هيئة كهنة القديس بولص والقديس مارتن، وقد أرسلت خصيصاً إلينا من قبل كهنة ورسول العميد المذكور، وبراهين أخرى كافية، علاوة على ذلك وصل مؤخراً من المملكة الفرنسية بعض النبلاء مع عصبة من الفرسان المسلحين والأتباع، الذين نرغب في أن يغلوا جميعاً ويقيدوا بقرار الحرمان الكنسي، لأنهم يقومون بغزو مملكة انكلترا مراغمة لمولانا البابا وللكنيسة الرومانية، وهم يبهونها يومياً، وجزئياً يحتفظون بتملكها، وبناء عليه إنه بموجب السلطات الرسولية، التي إلينا قد عهد بواجباتها وبأعمالها، نحن نشجب النبلاء المذكورين بمثابة محرومين كنسياً، وهم: قسطلان القديس أومر، وهيوج ثاكون، ويوستاس دي نيفيل، وقسطلان أراس Aras وبلدوين بريتيل، وو. W دي وايمز، وجايل دي ميلون، وو. W برمونت، وجايل دي هيرسي، وبيست دي فيرسي، مع معاونيهم، وجميع الذين منحوهم مساعدتهم، أو أموالهم، ضد الملك، لغزو مملكة انكلترا، والاستيلاء عليها، وكذلك العميد المذكور أعلاه، وكذلك جميع الكهنة ورجال الدين من كل مرتبة وطائفة في الكنائس المتقدم ذكرها، والمدينة، الذين علموا بقرار الوصاية، وقاموا إما بتغيب أنفسهم، أو استخدموا كل وسيلة، لمنع وصول القرارات إليهم

وتبلغهم بها، وبالسلطة نفسها نفرض عليكم أيضاً القيام بشجب جميع الذين تقدم ذكرهم أعلاه، بحكم كونهم محرومين كنسياً، وأن تدبروا نشر ذلك في جميع أرجاء أبرشيّتكم، وذكر العميد بالاسم وكذلك ذكر النبلاء المتقدم ذكرهم، وإنه باظهاركم الاهتمام بهذه القضية، وكذلك تلك التي وردت في رسائله الأولى إليكم، يمكنكم تجنب الاتهام بالاهمال لدى الخبر الأعظم، وبالخري نيل الاطراء والسمعة لديه من أجل يقظتكم، وداعاً».

### كيف أرسل لويس رسائل تطمين إلى البارونات

وفي هذه الآونة كتب لويس إلى البارونات الذي كانوا مقيمين في لندن، وإلى سكان المدينة كما يلي: «من لويس الابن الأسن للملك فيليب، إلى جميع أصدقائه وحلفائه في لندن، الصحة وأفضل التمنيات، كونوا متأكدين أننا لدى اقتراب أحد الفصح سوف نكون جاهزين في كالي، بفضل الرب، وذلك من أجل عبور البحر، وبما أنكم تصرفتم بأنفسكم بتماسك وشجاعة في جميع شؤونكم، إننا بالمقابل نرسل إليكم وفرة من الشكر، ونحن نطلب منكم بإخلاص ونسألکم الاستمرار كما فعلتم دوماً، وتصرفتُم بأنفسكم بكل شجاعة، ونحن نود أيضاً أن تكونوا متأكدين أننا سنكون لديكم خلال وقت قصير لمساعدتكم، ونحن نرجوكم بإخلاص بالنسبة لهذه القضية، أن لا تثقوا بالاقترحات الأخرى الزائفة، أو بالمكاتيب أو بالرسائل، لأننا نعتقد أنكم سوف تتسلمون رسائل مزيفة، ورسلاً مضللين، وداعاً».

وفي هذه الآونة خرج البارونات من لندن، وتوجهوا على شكل جماعة واحدة مع الفرسان الذين وصلوا مؤخراً من فرنسا للتمتع برياضة التبارز بالرمح فقط، ولبسوا دروعهم، وبعد إمضاء جزء كبير من النهار في حث خيولهم على الركض بسرعة، وطعن أحدهم الآخر برماحهم سدد واحد من الفرسان الفرنسيين رمحه ضد غيوفري دي

ماندفيل ايرل أوف اسكس وأصابه بجراحة قاتلة، وقام الايرل على كل حال بالعفو عن الرجل الذي جرحه، وبعد مضي عدة أيام مات، مما سبب حزن كثيرين عليه.

### كيف قدم والو بمثابة ممثل للبابا إلى الملك الفرنسي

وفي تلك الآونة نفسها، جرى إرسال المعلم والو Walo من قبل البابا إلى فرنسا مع سلطات رسولية لمنع لويس من الزحف إلى انكلترا، ولدى وصوله إلى الملك فيليب قدم إليه رسائل استنكار من البابا، كانت محتوياتها وأهدافها أن لا يسمح لابنه لويس بالذهاب إلى انكلترا كعدو، أو أن يقوم بالتضييق على الملك الانكليزي بأية طريقة من الطرق، بل أن يحميه ويحبه، لأنه تابع لكنيسة روما، وبحكم أنه رجل مملكته وحق حكمها عائد إلى كنيسة روما المذكورة، وفور قراءة الملك الفرنسي لهذه الرسائل أجاب: «لم تكن مملكة انكلترا قط ميراثاً لبطرس، وليست هي الآن، ولن تكون، لأن الملك جون، قد حاول منذ وقت طويل مضي، ظلاً انتزاع مملكة انكلترا من أخيه الملك رتشارد، ولذلك اتهم بالخيانة، وأدين بها بحضور ذلك الملك نفسه، وحكم عليه بموجب قرار صدر عن ذلك الملك نفسه في بلاطه، وقد تفوه بقرار الحكم هيوج دي بوساز Pusaz أسقف درم، ولذلك هو ليس ملكاً حقيقياً، ولا يمكنه التنازل عن مملكته، بالاضافة إلى ذلك هو لم يكن قط ملكاً شرعياً، ثم إنه خسر مملكته فيما بعد بقتله لآرثر، وهذه الفعلة أدين في محكمة بلاطنا» ثم إنه قال أنه ما من ملك أو أمير يمكنه تسليم مملكته والتنازل عنها من دون موافقة باروناته، الذين مفروض عليهم الدفاع عن تلك المملكة، وإذا كان البابا مصر على الدفاع عن تلك الخطيئة، سوف يكون ذلك مثلاً على درجة عالية من السوء بالنسبة إلى جميع الممالك، ووقتها أبدى النبلاء معارضتهم وعبروا عن ذلك بصوت واحد، بأنهم سوف يعارضون تلك المسألة حتى الموت، والمقصود بذلك

قيام ملك أو أمير وتمكنه حسب أهوائه وحده، بالتنازل عن مملكته، أو بجعلها تدفع الجزية وتحت سلطان هواها، لأن ذلك سوف يجعل نبلاء المملكة عبيداً، ووقعت هذه الأحداث في ليون في اليوم الخامس عشر بعد الفصح.

### كيف منع المندوب البابوي نفسه لويس من الذهاب إلى انكلترا

وجاء لويس في اليوم التالي إلى حضور اجتماع، بناء على طلب أبيه، وقد نظر بوجه مقطب إلى المندوب البابوي، وجلس إلى جانب أبيه، ووقتها بدأ المندوب البابوي يرجو لويس بمختلف وسائل الاستعطاف بعدم الذهاب إلى انكلترا لغزو ميراث كنيسة روما أو الاستيلاء عليه، واستعطف والده كما فعل من قبل، بأن لا يسمح له بالذهاب، وقام الملك الفرنسي — على كل حال — بإجابة المندوب البابوي بهذه الكلمات: «لقد كنت دوماً حليفاً مؤمناً ومخلصاً لمولانا البابا، ولكنيسة روما، وسعيت في جميع الأحوال حتى الآن نحو رفع شأن البابا والكنيسة بشكل فعال، ولن ينال ابني لويس الآن نصيحتي بمحاولة القيام بأي شيء ضد كنيسة روما، وعلى كل حال إذا استطاع لويس أن يبرهن على وجود أي إدعاء محق في مملكة انكلترا، دعونا نسمع منه وأن نعطيه ما هو حق له» وبناء على هذا، نهض فارس كان لويس قد عينه للمرافعة باسمه، وأجاب على مسمع من الجميع قائلاً: «مولاي الملك، إنها حقيقة معروفة بشكل جيد من قبل الجميع بأن جون، المدعو باسم ملك انكلترا، محكوم عليه بالموت، بموجب قرار صدر عن نظرائه في بلاطكم، بسبب خيانتته لابن أخيه آرثر، الذي قتله بيديه، ثم جرى خلعه بعد ذلك بوساطة بارونات انكلترا، من سلطانه عليهم، بسبب كثير من جرائم القتل واعتداءات أخرى وجرائم قد اقترفها هناك، ولهذا السبب شن البارونات المذكورون الحرب ضده، لطرده من عرش المملكة، وعلاوة على ذلك، أعطى الملك المذكور — من دون موافقة

نبلائه — مملكة انكلترا إلى مولانا البابا، وإلى كنيسة روما، حتى يتمكن من استئناف تملكها منها، مقابل مبلغ ألف مارك يدفعه سنوياً وإذا لم يكن بإمكانه إعطاء تاج انكلترا إلى أي إنسان، من دون موافقة البارونات، بإمكانه — على كل حال — الاستقالة، وبمجرد استقالته من حمل التاج، توقف عن كونه ملكاً، وباتت المملكة من دون ملك، ولا يمكن تسوية مشكلة المملكة الفارغة من دون معرفة موقف البارونات، ولذلك اختاروا لويس ليكون مولى لهم، لسبب هو أن زوجته، التي أمها ملكة قشتالة، هي الوحيدة الباقية حية من بين جميع إخوان وأخوات ملك انكلترا المذكور، واحتج النائب البابوي بأن الملك جون قد حمل الصليب، وبناء على ذلك، وبموجب قرار المجمع المسكوني يستحق تملك السلم لمدة أربع سنوات، وينبغي بقاء جميع أملاكه مضمونة وسليمة تحت حماية الكرسي الرسولي، ولذلك يتوجب أن لا يشن لويس في ذلك الوقت الحرب على الملك المذكور، أو حرمانه من مملكته، وعلى هذا رد وكيل لويس قائلاً: «لقد شن الملك جون قبل حمله للصليب الحرب على مولانا لويس، وحاصر ودمر قلعة بنكهام، ومثل ذلك استولى على آريا، وأحرق الشطر الأكبر منها، واعتقل عدداً من الفرسان مع أتباعهم في ذلك المكان، وما زال يحتفظ بهم أسرى لديه، وحاصر أيضاً قلعة لين Liens وقتل عدداً كبيراً من الناس في ذلك المكان، وعاث فساداً بالسيف والنار في كونتية غسني Gisnes التي هي اقطاع قانوني لمولانا لويس، وأكثر من هذا إنه ما انفك يشن الحرب ضد مولانا لويس حتى بعد حمله للصليب، ولذلك يمكن بشكل مسوغ إثارة الحرب ضد الملك المذكور».

ولم يقتنع النائب البابوي — على كل حال — بهذه المسوغات، فمنع لويس — كما فعل من قبل، تحت طائلة الحرمان الكنسي — من محاولة الدخول، ومنع أيضاً أباه من السماح له بالذهاب، ولدى سماع لويس

لهذا، قال لأبيه: «مع أنني تابع اقطاعي لك، في الاقطاعية التي منحتني اياها في هذا الجانب من البحر، إنه ليس من واجبك تقرير أي شيء يتعلق بمملكة انكلترا، وبناء عليه إنني أخضع نفسي لقرار نظرائي، حول عما إذا كان يجوز لك منعي من طلب حقوقي، ولا سيما الحق الذي لا يمكنك تقديم العدل لي بشأنه، ولذلك أسألك أن لاتعيق مقصدي في السعي وراء حقوقي، لأنني من أجل ميراث زوجتي، سوف - إذا اقتضى الحال - أصارع حتى الموت» وما أن أكمل لويس النطق بهذه الكلمات، حتى انسحب من الاجتماع مع أتباعه، ولدى رؤية النائب البابوي لهذا، طلب من الملك منحه أماناً حتى يصل إلى ساحل البحر، وعلى طلبه هذا رد الملك قائلاً: «نحن بسرور نمنحك أماناً بالمرور في أراضينا، لكن إذا صدف ووقعت في يدي يوستاس الراهب، أو في أيدي أي واحد من رفاق لويس الآخرين، المسؤولين عن البحار، لا تلمني لأي شيء سوف يقع لك»، وإثر هذا غادر النائب البابوي البلاط مغضباً.

### كيف حصل لويس على إذن أبيه وذهب إلى انكلترا

وفي اليوم التالي الذي كان يوم عيد القديس مرقس الانجيلي، ذهب لويس إلى أبيه في ميلون Melun ورجاه عدم إعاقه رحلته المقترحة، وأضاف بأنه أعطى يمينه إلى بارونات انكلترا، أنه سوف يقدم إلى عونهم، ولذلك هو بالحري يؤثر أن يجري حرمانه كنسياً لبعض الوقت من قبل البابا، ويفضل ذلك على نيل تهمة الزيف والخداع، ورأى الملك اصرار ابنه وقلقه، فأعطاه إذنه، وأرسله مع تبريكاته، وعندها أرسل لويس رسلاً إلى بلاط روما، ليعرضوا أمام البابا حقوقه التي يدعيها لنفسه في مملكة انكلترا، وبعد هذا بادر مسرعاً كل السرعة نحو شاطئ البحر، بصحبة ايرلاته، وباروناته وفرسانه وعدد كبير من الأتباع، حتى يتمكن من الوصول إلى انكلترا قبل النائب البابوي، وعندما وصل

وصحبه إلى ميناء كالي وجدوا هناك ستمائة سفينة، وثمانين غليون، كلها مجهزة بشكل جيد، وكلها كان يوستاس الراهب قد أعدها وجمعها بانتظار وصول لويس، ولذلك ألقع الجميع على الفور، وأبحروا بكل سرعة، باتجاه جزيرة ثانت **Thanet** حيث رسوا في مكان يدعى ستانهور **Stanhore** في الحادي والعشرين من أيار، وكان الملك جون آنذاك في دوفر مع جيشه، لكن بما أنه كان محاطاً بمرتزقة أجانب، وفرسان من مناطق ما وراء البحر، لم يغامر بمهاجمة لويس وقت رسوه، خشية أن يتخلوا عنه أثناء القتال، وينضموا إلى جانب لويس، وتخلي عن قلعة دوفر، التي عهد بها إلى هيوغ دي بورغ **Burgh** واستمر في فراره حتى وصل أولاً إلى غولد فورد، **Guldford** وبعد ذلك إلى وينكستر، وعندما لم يجد لويس من يعترض سبيله نزل في ساندويش، وأخضع على الفور المنطقة كلها باستثناء قلعة دوفر، ثم إنه ذهب إلى لندن، واستقبل هناك بسرور عارم من قبل جميع البارونات، وتلقى الولاء والتابعة منهم جميعاً، ومن سكان المدينة الذين كانوا ينتظرون وصوله هناك، وأقسم هو نفسه على الأناجيل المقدسة بأنه سوف يمنحهم قوانين جيدة ويعيد مواريتهم لكل واحد منهم ولهم جميعاً، وكتب كذلك إلى ملك الاسكوتلنديين، وإلى جميع نبلاء انكلترا، وبناء على هذه الأوامر قدم إليه وليم إيرل وارني **Warrene** ، و.و. **W** إيرل أوف آرونديل **A rundel** ، و.و. **W** ميرسكال **Marsckal** الأصغر، وآخرون كثير بالاضافة إليهم، حيث تخلوا عن الملك جون، وكأنهم كانوا متأكدين تماماً بأن لويس سوف يستحوذ على المملكة، وعين لويس المعلم سيمون لانغتون مستشاراً له، وهو الذي تولى وعظ سكان لندن، وكذلك البارونات المحرومين كنسياً، أثناء تأديتهم للخدمات اللاهوتية، وأقنع أيضاً لويس بالموافقة عليها.

## النائب البابوي والو يتبع لويس إلى انكلترا

وفي هذه الآونة، عندما سمع والو النائب البابوي، بأن لويس قد غادر إلى انكلترا، قام كنائب نشيط للكرسي الرسولي ووصايته، فعبر البحر للحاق به، وعبر من بين الأعداء دون أن يصاب بالأذى، ووصل إلى الملك جون في غلوستر، واستقبله هذا الملك بسرور عارم، وألقى بجميع آماله في أن يتمكن من مواجهة أعدائه عليه، وعندها جمع النائب البابوي جميع الأساقفة، ورعاة الدير، ورجال الدين الذين تمكن من حشدهم، وقام وسط قرع الأجراس، والشموع المشتعلة، فحرم بالاسم لويس المذكور مع جميع المتعاونين معه ومحرضيه، وخاصة المعلم سيمون لانغتون، وأمر بالوقت نفسه الأساقفة المذكورين وجميع الآخرين، بنشر هذا القرار في جميع أرجاء انكلترا كل يوم أحد ويوم عيد، وقد ردّ على هذا كله المعلم سيمون لانغتون، والمعلم غيرفاس دي هوبرجي Ho-bregge قائد جوقة المرتلين في كنيسة القديس بولص في لندن، وعدد من الآخرين، بأنهم قد عملوا مرافعة استئناف نيابة عن لويس، ولهذا هم يعدّون ذلك القرار لاغياً وفارغاً، وفي هذا الوقت تخلى جميع الفرسان والجنود من بلاد فلاندرز ومن مقاطعات ماوراء البحار عن قضية الملك جون وذلك باستثناء الذين هم من بواتو، وقد التحق بعضهم بلويس، وعاد بعضهم الآخر إلى وطنهم.

## كيف أخضع لويس المقاطعات الجنوبية لانكلترا

وفي هذه الآونة غادر لويس مدينة لندن مع كتلة كبيرة من الفرسان، وهاجم كونتية كنت، ونظرا لعدم تصدي أحد له، أخضعها على الفور، وذلك باستثناء قلعة دوفر، وتابع زحفه فاستولى بالقوة على سسكس مع جميع البلدات والحصون، لكن كان هناك شاب اسمه وليم، رفض تقديم الولاء إلى لويس، وحشد جماعة من ألف نبال، ولجأ إلى الأحرار والغابات التي كانت كثيرة في تلك المنطقة، واستمر بالقتال ضد

الفرنسيين خلال تلك الحرب كلها، وقتل آلافاً كثيرة منهم، ووصل لويس أخيراً إلى مدينة وينكستر، وقد أخضعها مع القلعة والمنطقة المجاورة كلها، وذهب هيوج دي نيفيل إلى لويس، وسلم إليه قلعه مالبور Malborough ، وقدم الولاء له، وذهب لويس بعد هذا إلى أوديهام Odiham، وهي بلدة كانت عائدة بملكيتها إلى أسقف وينكستر، وألقى الحصار على البرج، وكان في هذا البرج ثلاثة فرسان فقط وعشرة عساكر، وقد دافعوا بشجاعة عنه، وفي اليوم الثالث، قام الفرسان الثلاثة المتقدم ذكرهم مع جنودهم بهجوم مباغت من البرج، وذلك بعدما كان الفرنسيون قد رتبوا مجانيقهم حول البرج، وقاموا بعدة حملات حادة عليه، وقد أسر هؤلاء من الفرنسيين مثل عددهم من الفرسان والجنود، وعادوا إلى البرج واستردوه دون أن يعانون من خسارة بينهم أنفسهم، وبعدها -على كل حال- استمر الحصار لمدة ثمانية أيام سلموا البرج إلى لويس، وخرجوا منه أنفسهم وعددهم ثلاثة عشر فقط، ومعهم خيولهم وأسلحتهم مصانة، مما سبب دهشة كبيرة بين الفرنسيين، وهكذا وقعت جميع المناطق الجنوبية تحت سلطة لويس باستثناء قلعة دوفر، ووندسور، التي كانت مشحونة بشكل جيد، تنتظر وصول لويس، وفي الوقت نفسه قام وليم دي مانديفيل، وروبرت فتر -وولتر، ووليم دي هنتغفيلد مع جيش قوي من الفرسان والجنود، فأخضع كوثيتي اسكس وسفولك، ووضعها تحت سلطة لويس، وفي أثناء حدوث هذا كله، وضع الملك جون مؤناً جيدة وأعتدة وأسلحة في قلاع: وولنغفورد، وكورفي، ووورهام، وبريستول، وديفيزي De-vizes، مع أعداد أخرى كثيرة من الصعب ذكرها.

### نشاطات رسل لويس في روما

وفي هذه الآونة كتب الرسل الذين أرسلهم لويس إلى بلاط روما إليه كمايلي: «إلى مولانا القوي جداً لويس الابن الأكبر لملك فرنسا، يتمنى له

الرسل: د. D دي كوربيل Corbeil، وإي دي مونتيستو Mon-tevisto، وغ. G لايمث Limeth، الصحة والأدعية الصالحة، ليكن معلوماً من قبلكم يا صاحب السمو أنه في يوم أحد «ad mensum Pasclae»، وصلنا إلى مولانا البابا، من دون أذى لأنفسنا ولسلعنا، ومثلنا على الفور أمامه في اليوم نفسه، وقد وجدناه مشرق النفس، لكن كما يبدو لديه سبب مايدفعه إلى الأسف، وعندما قدمنا رسائلنا إليه وحينها باسمكم أجبنا: «إن مولاكم ليس جديراً بتحيتنا» فأجبت على الفور قائلاً: «أعتقد يا أبانا أنك عندما تسمع أسباب وتعليقات مولانا سوف تجده جديراً بتحيتك، كمسيحي وكاثوليكي، وواحدًا مخلصاً لك دوماً، ولكنيسة روما»، وهكذا انسحبنا من حضرته في ذلك اليوم، ولكن أثناء انصرافنا، أخبرنا قداسته بلطف عظيم، أنه على استعداد لمنحنا مقابلة أخرى، عندما نرغب، وفي الوقت الذي نريده، وفي يوم الثلاثاء التالي أرسل مولانا البابا واحداً من حاشيته، إلى مكان اقامتك، أمراً إيانا بالقدوم إليه، وبناء عليه مثلنا على الفور بحضرته، وبعدما عرضنا قضيتنا، قال الكثير في جوابه لنا، وما أن أكمل عرضه، حتى ضرب صدره وتنهَّد عميقاً، وقال: «الويل لي، إنه في هذه المشاكل، لن تستطيع كنيسة الرب النجاة من الاضطراب، لأنه إذا ما قهر ملك انكلترا، سوف نجد أنفسنا متورطين في مشاكله، لأنه تابع اقطاعي لنا، ومتوجب علينا حمايته، وإذا ما قهر مولاكم لويس، ففي تعرضه للضرر، ضرر لكنيسة روما، لأننا نعدّ الضرر الذي يلحق به مثل الضرر الذي يلحق بنا أنفسنا، ولقد تمسكنا دوماً بالأمل، ونحن نتمسك به الآن، في أن لا يكون في جميع أوقات الحاجة السلاح في قمع السلوان، وفي اضطهاد اللاجئيين إلى كنيسة روما»، وقال أخيراً بأنه يتمنى أن يموت الآن على أن يلحق بك أي أذى في هذه القضية، وهكذا غادرنا من عنده في ذلك اليوم، علاوة على ذلك، نحن -بناء على نصيحة بعض الكرادلة - بانتظار يوم عيد الصعود، من أجل أن لا يصدر أي قرار ضدك، لأن

من عادة البابا أن يكرر قراراته، ذلك أن البابا أخبرنا بنفسه بأنه يتوقع رسائل من السيد والو، وداعاً.

### فيما يلي

#### الالتهامات التي أثارها لويس وبارونات انكلترا ضد الملك جون

وكانت أول تهمة عرضت أمام مولانا البابا ضد الملك جون، من قبل الرسل المتقدم ذكرهم، أنه قام بشكل اجرامي بقتل ابن أخيه آرثر بيديه، وهو أسوأ أنواع القتل حسب تعريفات جرائم القتل الانكليزية، وبسبب هذه الجريمة أدين الملك المذكور وحكم عليه بالاعدام، في محكمة بلاط الملك الفرنسي، من قبل قضاة من أمثاله مرتبة، وجاء اعتراض البابا على هذه التهمة، بأنه لايمكن لبارونات الحكم عليه بالموت، لأنه كان ملكاً معمداً، وبالتالي رئيساً لهم، ولايمكن أن يحكم عليه بالموت من قبل البارونات، لأنهم أدنى منه مرتبة، ولأن الأعلى مرتبة يمكنه من بعض الجوانب تدمير سلطة الأدنى مرتبة، وبالإضافة إلى ذلك، واضح أنه معارض للقانون المدني، وعلى عكس القانون الكنسي اصدار قرار بالإعدام على رجل غير حاضر، ولم يتم استدعاؤه، ولا تجريمه، أو اعترافه بأنه مجرم، وعلى هذا أجاب الرسل قائلين: «إن من أعراف مملكة فرنسا، أن يكون للملك جميع أنواع السلطات القضائية على رعاياه الاقطاعيين، وملك انكلترا من رعاياه الاقطاعيين، فقد كان كونتا ودوقاً، ومع أنه كان في مكان آخر ملكاً معمداً، هو بحكم كونه ايرل ودوق، قد كان تحت السلطان القضائي لمولانا، ملك فرنسا، وإذا ما اقترف أي ايرل أو دوق مثل هذه الجريمة في المملكة الفرنسية، يمكن -لابل ينبغي - الحكم عليه بالإعدام من قبل نظرائه، وأكثر من هذا، إنه حتى وإن لم يكن دوقاً أو كونتاً، أو تابعاً اقطاعياً من رعايا الملك الفرنسي، واقترف هذه الجريمة في المملكة الفرنسية، يمكن للبارونات فيما يتعلق بجريمة اقترفت في تلك المملكة، الحكم عليه بالاعدام، ومن

جانب آخر إذا كان من غير المملكن الحكم على ملك انكلترا بالاعدام، لأنه ملك معمد، من الممكن قدومه إلى فرنسا، ومن ثم يدان بالقتل، من قبل البارونات لقتله آرثر، وعلى هذا أجاب البابا قائلًا: «هناك عدد كبير من الأباطرة والأمراء، لابل حتى ملوك فرنسيين، قد أفيد من قبل التاريخ بأنهم قتلوا كثيراً من الأشخاص الأبرياء، ومع ذلك نحن لم نقرأ بأن أي واحد من هؤلاء قد حكم عليه بالاعدام، وعندما جرى سجن آرثر في ميربو، لم يكن انساناً بريئاً، بل كان مجرمًا وخائناً لعمه ومولاه الذي إليه قدم الولاء وأقسم على التبعية، لذلك من الممكن الحكم عليه بأسوأ أنواع الموت من دون محاكمة.

### التهمة الثانية التي أثرت من قبل المذكورين أعلاه ضد جون

وكانت التهمة الثانية التي أثرت ضد الملك، أنه قد استدعي مراراً للمثول أمام محكمة بلاط فرنسا، وهو لم يظهر شخصياً حتى ينال محاكمته، ولم يرسل أحداً نيابة عنه ليقوم بالاجابة عوضاً عنه، وعن هذه التهمة رد البابا، بأن ملك انكلترا لم يكن متمرداً إلى درجة ظهوره في المحكمة أو دعوته للمثول أمام المحكمة، وما من أحد يمكنه -أو ينبغي له - أن يعاقب بالموت بسبب التمرد أو العصيان، ولذلك لا يمكن لبارونات فرنسا الحكم عليه بالموت، بل يمكن لهم معاقبته بطريقة أخرى، أي بحرمانه من اقطاعه وتجريده منه، وقد أجاب الرسل على هذا قائلين: «إن العرف في المملكة الفرنسية، أنه عندما يتم اتهام أي واحد أمام القاضي بجريمة قتل وحشية، ولم يظهر المتهم أمام المحكمة، ولم يرفع استئنافاً شرعياً يسوغ فيه عدم ظهوره، فإنه يعد مجرمًا، ويجري تجريمه وتجري ادانته بجميع التهم، حتى إلى حكم الاعدام، وكأنه كان حاضراً»، وعلى هذا رد البابا قائلًا، بأنه من الممكن الحديث عن وجود اتفاق بين ملك فرنسا، ودوق نورماندي، أو عادة قديمة وبموجب ذلك يتوجب على دوق نورماندي، إذا مادعاه ملك فرنسا، أن يصل حتى

حدود دوقيته، ولذلك إنه إذا لم يستجب أثناء استدعائه، هو لم يقترب جريمة، كما لا يمكن بسبب ذلك عقوبته بمثل هذه الطريقة، وقال البابا أيضاً، وبما أن القرار الذي صدر ضد ملك انكلترا - لم يتم تنفيذه، لأنه لم يعدم، فبموجب ذلك إن أولاده الذين ولدوا بعد ذلك، ينبغي أن يخلفوه في المملكة، لأن ملك انكلترا لم يقترب جريمة الخيانة، أو الهرطقة، لأن مقترفها فقط لا يحق لولده أن يرث والده، بسبب جريمة أبيه، ورد الرسل على هذه الحجة قائلين: «إن العادة في مملكة فرنسا، أنه عندما يصدر الحكم بالاعدام على أي واحد، فإن أولاده الذين ولدوا له بعد صدور الحكم عليه لا يحق لهم خلافته»، هذا ولم يرغب الرسل بمناقشة هذه النقطة، ثم قال البابا بعد ذلك، ومع أن ملك انكلترا قد صدر حكم الإعدام عليه، وقد ولد له أولاد من صلبه، فإن بلانشي لا يجوز لها أن تخلفه، بل يخلفه الأقرب إليه من أسرته، أي أولاد أخيه الأكبر، وعلى هذا أخت آرثر، أو أوتو، الذي هو ابن أخته الكبرى، وإذا ماتقرر بأن ملكة قشتالة ينبغي أن تخلفه، وبعد ذلك ابنتها بلانشي بحكم أنها ابنتها، وهذا لا يمكن أن يكون صحيحاً ولا لائقاً، لأن الذكر ينبغي أن يكون هو المفضل، أي ملك قشتالة، وإذا لم يتوفر ذكر، فإن ملكة ليون ينبغي أن تفضل لأنها الأكبر سناً، وعلى هذا رد الرسل قائلين: « إن أبناء الأخ لا ينبغي لهم أن يخلفوه، لأن الأخ لم يكن حياً وقت صدور القرار، وأخت ابن أخيه آرثر لا يجوز لها أن تخلفه لأنها لم تكن منحدره من خطه النسبي مباشرة، مع أنها ابنة أخيه، ومثل هذا أم أوتو، لم تكن حية وقت صدور القرار، لذلك هي لم تخلفه، وبالنتيجة لذلك لا يجوز لأوتو أن يخلفه، لكن ملكة قشتالة كانت حية، وهي أخته، ولذلك يحق لها خلافته، ولدى موت ملكة قشتالة فإن أولادها هم الذين يخلفونها وينبغي أن يخلفوه، وعلى هذا رد البابا قائلاً، بأن ملك قشتالة ينبغي أن يخلفه، لأنه كان الوريث الذكر، أو ملكة ليون لأنها أكبر الوريثات سناً، وعلى هذا أجاب الرسل، بأنه عندما يكون هناك عدة وراث، يتوجب أن

يرثوا انسانا واحداً، إن الذي يأتي أولاً في الخلافة، يظل هو المحور، لكنه إذا ما أهمل الدخول في عملية الوراثة، يحل محله الذي يليه بالوراثة، وإذا مارغب بالدخول في عملية الوراثة، يتوجب تعيينه وتوريثه، وذلك وفقاً لعادة معترف بها، مع استثناء حق الآخر إذا ماطالب به، وبناء عليه دخل مولانا لويس إلى مملكة انكلترا، بحكم أنها مملكته، ولكن إذا توفر من هو أكثر قرابة منه، فليتقدم بدعواه في هذه القضية، وسيلتزم مولانا لويس بما هو صحيح ويأخذ به.

### الاعتراض الثالث ضد الملك جون

ثم قال البابا بأن مملكة انكلترا قد كانت مملكته، بحكم قانون التابعية الاقطاعية وبسببه، فلأجل ذلك قد تلقى قسماً يتعلق بها، وكذلك بسبب المورد الذي يدفع له من المملكة، وبما أنه لم يقترف ذنباً، فلا يجوز للويس أن يشن الحرب عليه، لينتزع منه بالقوة مملكة انكلترا، خاصة وأن ملك انكلترا مستحوذ عدداً من الاقطاعات من ملك فرنسا، ولهذا السبب لا تجوز إثارة الحرب ضده، وفي ردهم على هذا قال الرسل: «إنها الحرب، وحرب عادلة قد خيضت ضد ملك انكلترا، قبل أن تصبح هذه المملكة عائدة إلى قداستكم، هذا وكان وليم صاحب السيف الطويل وكثير آخرون قد قدموا مع قوة كبيرة من مملكة انكلترا، وأنزلوا كثيراً من الأذى بفرنسا، وسببوا كثيراً من الخسائر للمولى لويس، لذلك يحق له بشكل مسوغ وعادل شن الحرب ضد ملك انكلترا»، وعلى هذا رد البابا قائلاً: إنه مع أن ملك انكلترا قد شن الحرب على لويس، لا يجوز للويس أن يهاجمه ويشن الحرب ضده، بل يتوجب أن يشتكى منه إلى مولاه، أي إلى البابا، الذي له ملك انكلترا تابع اقطاعي ومن رعيته، وعندها أجاب الرسل بأن العادة قد جرت، أنه عندما تشن الحرب على أي واحد من قبل تابع اقطاعي لواحد آخر اعتماداً على سلطاته ومسؤوليته الخاصة، يحق للذي شنت الحرب عليه تقديم شكوى إلى

مولى الرجل الآخر، وإذا ما أقدم ذلك المولى على حماية ذلك التابع أثناء استمراره بشن الحرب، فإن المولى نفسه هو الذي قام بشن الحرب، ووقتها قال البابا بأنه قد تقرر في المجمع المسكوني وجوب قيام سلام، أو هدنة لمدة أربع سنوات بين جميع المختلفين، من أجل تقديم ضمانة إلى الأرض المقدسة، ولذلك لا يجوز للويس شن حرب على مملكة انكلترا، أثناء تلك المدة، ورد الرسل على ذلك قائلين بأن لويس عندما غادر فرنسا، لم توجه إليه دعوة للحفاظ على السلام، أو الهدنة، لابل حتى وإن تلقى شيئاً من هذا القبيل، فإنهم يعتقدون بوجود نوايا سيئة من جانب ملك انكلترا، ذلك أنه لن يحافظ لاعلى السلام ولا على الهدنة، ثم قال البابا بأن ملك انكلترا قد حمل الصليب، وبناء عليه إنه بموجب قرار المجمع المسكوني، فإنه يتوجب حمايته وحماية جميع ممتلكاته من قبل الكنيسة، وعلى هذا أجاب الرسل، بأن ملك انكلترا قد شن الحرب على لويس قبل أن يحمل الصليب، وقد أنزل به كثيراً من الأضرار، واستولى على قلاعه، لابل إنه مازال يحتجز لديه فرسانه وجنوده في السجن، وعلى هذا هو ما يزال في حالة حرب ضد لويس، وهو لن يمنحه سلام ولن يقيمه معه، ولن يعطيه هدنة، مع أنه غالباً ما طلب منه فعل ذلك، ثم قام البابا بإخبارهم، أنه بموافقة عامة من المجمع المسكوني جرى حرمان بارونات انكلترا كنسياً مع محرضيهم، وبناء عليه فإن لويس قد أوقع نفسه تحت طائلة هذا القرار، وأجاب الرسل على هذا بأن مولاهم لويس لا يقوم بمساعدة بارونات انكلترا، كما أنه ليس محرضاً لهم، بل هو يعمل فقط على نيل حقوقه، ولويس لم يعتقد، ولا يمكنه أن يعتقد بأن البابا أو المجمع يمكن أن يقوموا بحرمان انسان كنسياً بشكل غير عادل، لأنه في وقت صدور القرار لم يعلم قداسته بأن لويس لديه أي ادعاء أو مطالبة بمملكة انكلترا، وبما أن هذا قد تبرهن له، فإن لويس لم يعتقد بأن المجمع سوف ينتزع حقوقه منه، وقال البابا بعد هذا بأن ملك فرنسا، وكذلك ابنه لويس، قد قام حتى بعد صدور قرار الحكم ضد

ملك انكلترا من قبل البارونات الانكليز، بدعوة جون باسم ملك، وعده ملكاً، وعمل معاهدات معه بحكم كونه ملكاً لانكلترا، وعلى هذا أجاب الرسل، بأنه بعدما صدر قرار الحكم ضد الملك من قبل البارونات، لم يعدّوه قط ملكاً، لابل دعوه باسم «الملك المخلوع»، وفق الطريقة نفسها التي يعامل بها راعي دير أو أي واحد آخر جرى خلعه، وأخيراً قال البابا، بأنه سوف يتخذ قراره حول هذه القضايا، قبل وصول الرسل من عند والو.

### كيف عاث لويس فساداً في المقاطعات الشرقية من انكلترا

وقام لويس في هذه الآونة بهجوم على المناطق الشرقية من انكلترا، ونهب مدن وبلدات اسكس، وسفولك، ونور فولك، وقد وجد قلعة نورويك مهجورة، فشحنها بجنوده، وفرض ضرائب على جميع هذه المناطق، كما أنه أرسل قوة كبيرة ضد بلدة لين Lynn ، حيث جرى الاستيلاء عليها، مع أخذ سكانها أسرى، وإرغامهم على دفع أتاوة كبيرة، وعاد الفرنسيون بعد هذا مع غنائم كبيرة وأسلاب إلى لندن، وقدم في ذلك المكان غيلبرت دي غانت Gant إلى لويس، وإليه قدم سيف كونتية لنكولن، ثم بعثه لويس من هناك للتصدي لغارات حاميتي قلعتي: نوتنغهام، ونيوآرك Newark لقيامهما بتدمير جميع مساكن البارونات وأبنيتهم الجميلة بالنار في تلك المنطقة، مع الاستيلاء على الأراضي التي كانت بحوذتهم وملكاً لهم، وفي تلك الآونة أخضع روبرت دي روس Roos، وبيتر دي بروز، ورتشارد بيرسي مدينة يورك وجميع المنطقة لصالح لويس، واستولى غيلبرت دي غانت وروبرت دي روبلي Roppelle على مدينة لنكولن وتلك المنطقة باستثناء القلعة، وفرضوا ضريبة سنوية عليها كلها، وزحفاً من هناك إلى هويلاند Hoyland، فنهباها، وفرضوا ضريبة عليها، وأخضع ملك سكوتلندا جميع كونتية نورثامبرلاند، لصالح لويس، باستثناء القلعتين

اللتين كان هيوج دي بيللول Baillul وفيليب دي هيولكوت Hu- lecotes يدافعان بشجاعة عنهما ضد المهاجمين من الأعداء، وجرى على كل حال اخضاع جميع هذه المقاطعات، وأقسمت يمين الولاء للويس، وجبى في هذا العام والو النائب البابوي ضرائب على الوكالات من الكنائس الكاتدرائية، ومن البيوت الدينية في جميع أرجاء انكلترا، أي خمسين شلنا من كل وكالة، وعلاوة على ذلك فرز جميع منافع الكهنة ورجال الدين الذين قدموا مساعدة، أو مشورة، أو رعاية لقضية لويس، وحوّل ذلك كله لاستخداماته شخصياً ولاستخدامات كهنته.

### حصار قلعة دوفر من قبل لويس

وفي هذا العام نفسه، ألقى لويس مع قوة كبيرة من الفرسان والجنود الحصار على قلعة دوفر، وكان ذلك في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، وكان قد أرسل أولاً إلى أبيه ليعث إليه آلة قذف يدعوها الفرنسيون باسم «Malvoisine»، وقد صف الفرنسيون هذه الآلة والآلات الأخرى أمام القلعة، وبدأوا يقصفون الأسوار بشكل متواصل، لكن هيوبرت دي بيرغ، الذي كان فارساً شجاعاً، قد تمكن مع مائة وأربعين فارساً وعدداً كبيراً من الجنود كانوا يدافعون عن القلعة، من تدمير كثير من الأعداء، حتى إذا شعر الفرنسيون بفداحة خسائرهم نقلوا خيمهم وآلات رميهم بعيداً عن الأسوار، وغضب لويس لهذا غضباً عظيماً، وأقسم أنه لن يغادر المكان حتى يجري الاستيلاء على القلعة، ومن ثم يتم شنق جميع أفراد الحامية، ولهذا قام الفرنسيون حتى ييثوا الرعب في قلوبهم، ببناء عدد من الحوانيت مع أبنية أخرى أمام مدخل القلعة، لذلك بدا المكان وكأنه سوق، ذلك أنهم أملوا أنهم سوف يرغموهم على الخضوع بوساطة الحصار الطويل والجوع، بما أنهم لم يتمكنوا من اخضاعهم بقوة السلاح.

## الاستيلاء على قلعة كمبردج

وقامت في هذه الآونة نفسها مجموعة من البارونات الذين كانوا مقيمين في لندن بغارة داخل المنطقة القريية من كمبردج، ونهبوها واستولوا على القلعة في ذلك المكان، وأسروا عشرين جندياً وجدوهم فيها، وحملوهم معهم، ومن هناك اجتاحوا كونتيتي نورفولك وسفولك، فنهبوا المنطقة وكذلك جميع الكنائس، واستخرجوا غرامات كبيرة من بلدات يارماوث Yarmouth، ودنويتش Dunwich، وابسويتش Ipswich، ثم إنهم بعدما جمعوا منهوباتاً كثيرة من حول كولشستر Colchester، وعاثوا فساداً بالمنطقة هناك وفق الطريقة نفسها، عادوا إلى ماويهم القديمة في لندن.

## حصار قلعة ويندسور

وبعد هذه الأحداث، حشد البارونات قوة كبيرة، وألقوا الحصار على قلعة ويندسور، وأسندت قيادة هذا الجيش إلى كونت دي نافار Nev-ers، الذي كان منحدرًا من الخائن غونلون Guenelon وبعدما رتب رجال هذا الجيش آلتهم، قاموا بهجوم حاد على الأسوار، وكانت هذه القلعة تحت عهدة انغلارد دي آتي، وكان رجلاً عظيم الخبرة بالحرب، يحيط به ستون فارساً مع أتباعهم، وقد دافع هؤلاء عن القلعة بشدة ضد أعدائهم، وما أن سمع جون بأن قلعتي دوفر وويندسور كانتا تحت الحصار، حتى جمع جيشاً كبيراً من حاميات القلاع التابعة له، وبوساطة هذا الجيش اجتاح أراضي الايرلات والبارونات في أيام الحصاد، فأحرق بيوتهم ومحاصيلهم، وأنزل أضراراً واسعة بأعدائه، وتجول بعد هذا في كونتيات نورفولك، وسفولك، محدثاً دماراً ماثلاً بين ممتلكات ايرلات: آرنوديل، وروجر بيغود، ووليم دي هتتغفيلد، وروجر دي كريسي، ونبلاء آخرين، وعندما رويت أخبار هذه الحوادث كلها إلى البارونات الذين كانوا يحصلون على قليل من التقدم، أو على لاشيء مطلقاً لدى

حصارهم لقلعة ويندسور، قرروا رفع الحصار، من أجل أن يقطعوا طريق الانسحاب على الملك جون، الذي كان آنذاك -كما قيل- يذهب ويجمع الأسلاب حول ساحل سفولك، وقاموا ببناء عليه، وعلى وصية ونصيحة من كونت دي نافار -الذي يقال بأنه تلقى رشوة بوساطة الهدايا من الملك- فرفعوا الحصار أثناء الليل، وغادروا خيامهم، وزحفوا مسرعين نحو كمبردج، من أجل تطويق الملك، وكان الملك قد أُنذر مقدماً بهذا، بوساطة الكشافة الجيدين، وحصل ذلك قبل وصول البارونات إلى كمبردج، وحمل نفسه مثل رحالة بارع، إلى بلدة ستامفورد، ومن هناك أخذ طريقه نحو الشمال، ولدى سماعه بأن قلعة لنكولن كانت تحت الحصار، سار بأقصى سرعة نحو ذلك المكان، وقام غيلبرت دي غانت مع النورمان الآخرين، الذين كانوا يحصرونها، بالفرار من أمامه، ذلك أنهم ارتعبوا من حضوره، وجاء فرارهم مثل البرق، والبارونات أيضاً، الذين لحقوا الملك، عندما وجدوا أنفسهم قد خدعوا، انغمسوا في أعمال السلب والنهب، وركزوا اهتمامهم على تدمير الممتلكات، ثم عادوا مع منهوباتهم إلى لندن، حيث عينوا بعض الفرسان لحراسة المدينة، ثم زحفوا للالتحاق بلويس عند دوفر، وقام الملك جون في الوقت نفسه بمتابعة زحفه نحو حدود ويلز، حيث حاصر قلاع البارونات في ذلك الاتجاه واستولى عليها، وأمر بهدمها جميعاً، وتسويتها بالأرض، وقد وفرت أعمال التهديم التي اقترفها بوحشية بين البيوت والمحاصيل العائدة للبارونات المذكورين، مشهداً محزناً لكل من رآه.

وفي شهر تشرين الثاني من العام نفسه، قدم الاسكندر، ملك الاسكوتلنديين، لخوفه من الملك جون، ووصل مع جيش كبير، إلى لويس عند دوفر، وقدم الولاء له، بالنسبة للامتياز الذي يستحوذ عليه من ملك الانكليز، لكن حدث له، وهو على طريقه إليه، أنه عندما كان

مجتازاً لقلعة برنارد في منطقة هيلويركفولك Hailwerfolk، التي كانت في اقطاعية هيوغ دي هيللول، قام هو ونبلأء تلك المنطقة بالركوب والسير حول القلعة لاكتشاف مكان مكشوف يمكن منه القيام بهجوم، وفي تلك الأثناء فوَّق رجل من داخل القلعة قوسه العقار، وأطلقه، فجرح رجلاً من المرتبة العليا، هو يوستاس دي فيسكي، وأصابه في جبهته، فحرق دماغه، وقد مات حيث هو، وكان يوستاس هذا متزوجاً من أخت ملك سكوثلندا، ولذلك حزن هذا الملك عليه كثيراً ومعه الذين كانوا برفقته، وقدم -على كل حال - الملك المذكور الولاء وعمله، حسبما كان قد جرى إعداده من قبل، ثم عاد إلى وطنه.

### الكشف عن خيانة الفرنسي

وحدث في هذه الآونة أن فيزكونت دي ميلون Melun ، وكان فرنسيا نبيلاً، قدم إلى انكلترا مع لويس، قد وقع مريضاً بشكل خطير في لندن، وعندما وجد أن موته قد اقترب، بعث وراء بعض البارونات، الذين تركوا في المدينة مسؤولين عنها، للحديث معهم، وعمل على مسمع منهم جميعاً الاعتراف التالي حيث قال: «أنا حزين بسبب عزلتكم ودماركم، لأنكم لاتعرفون الخطر المحيق بكم والمعلق فوق رؤوسكم، لأن لويس ومعه ستة عشر كونتا وباروناً فرنسياً قد أقسموا، أنه ما أن يخضع انكلترا، ويتوج ملكاً، حتى سيقوم بالحكم بنفي دائم على جميع الذين يقاتلون الآن معه ويضطهدون الملك جون، وسيكون حكمه عليهم بحكم كونهم خونة ضد مولاهم، ولسوف يدمر جميع عناصرهم مع بني جنسهم ويخرجهم من المملكة، وعليكم عدم الارتياح بهذا، لأنني أنا الآن متمدد هنا وأنا على حافة الموت، أعلن لكم وأنا أخاطر بنفسي بأنني كنت واحداً ممن أدى ذلك القسم مع لويس، وبناء عليه إنني أنصحكم أن تعدوا العدة في سبيل نجاتكم في المستقبل وأن تبقوا سراً الذي أخبرتكم به الآن»، ومع فراغ هذا النبيل من هذه الكلمات

مات، ولدى انتشار هذه المعلومات بين البارونات كانوا في وضع حرج، لأنهم عرفوا بإحاطة الاضطرابات بهم من كل جانب، لأن لويس لم يأبه بشكاويهم، فأعطى أراضيهم وقلاعهم التي أخضعها في أماكن متعددة إلى فرنسيين، لكن الذي ضايقهم أكثر من كل شيء، هو وصمهم بالخيانة، ولقد ازداد خوفهم وحذرهم أيضاً، بسبب ظروف حرمانهم كنيساً، يوماً بعد يوم، ولأنهم حرموا من الشرف والمكانة الدنيوية، ولذلك وقعوا في اضطراب عظيم في كل من الجسد والعقل، وفكر كثير منهم بالعودة بولائهم إلى الملك جون، لكنهم كانوا خائفين كثيراً بحكم الأذى الكبير الذي ألحقه به، مما أثار سخطه عليهم، ومما قد يدفعه إلى عدم قبولهم حتى وإن كانوا تائبين.

### موت الملك جون

في أثناء متابعة لويس حصار دوفر، واستمراره في ذلك من دون نجاح، اقترب جون مع قوة كبيرة أعمال دمار هائلة ونهب مريع في كونتيتي سفولك ونورفولك، وأخيراً أخذ طريقة من خلال بلدة لين Lunn ، حيث جرى استقباله بسرور من قبل السكان، وتلقى هدايا كثيرة منهم، ثم إنه تابع زحفه نحو الشمال، لكنه أثناء عبوره لنهر ويلستر Wellester فقد جميع عجلاته وعرباتة وخيول حمل أثقاله مع جميع أمواله، وأنية ثمينة، وكل شيء له قيمة خاصة لديه، لأن الأرض انفتحت في وسط الماء، وسبب ذلك نشوء دوامات ابتلعت كل شيء، وكذلك الخيول والرجال، ولذلك ما من أحد نجا من هذه الكارثة، حتى الملك نفسه، ونجا هو بصعوبة بالغة مع جيشه، وأمضى الليلة التالية في دير اسمه سواينهيد Swinehead، وشعر هناك بالآلام مبرحة في قرارة نفسه حول الممتلكات التي ابتلعها المياه، فاستبدت به حمى عنيفة وصار مريضاً، وازداد مرضه بنزيف معوي لأنه أتخم نفسه وأفرط في أكل الدراق، وشرب عصير الفواكه الجديدة، مما ضاعف حماه، وزاد

مرضه، وغادر على كل حال ذلك المكان في الفجر الباكر، مع أنه كان مروجعاً، وأخذ طريقه إلى قلعة لافورت Lafort ليعسكر هناك، وكان في ذلك المكان في حالة آلام مبرحة، إلى حد أنه وصل بصعوبة في اليوم التالي إلى نيوارك وهو على ظهر حصان، وهناك أقعده مرضه، وقام بالاعتراف بنفسه، وتلقى القربان من راعي دير كروكستون Croxton، وعين بعد ذلك ابنه الأكبر هنري وريثاً له، وجعل مملكته تقسم على تقديم الولاء له، كما أرسل رسائل متهورة بنخاته إلى جميع عمد المناطق، وإلى شحن القلاع في المملكة، يأمرهم واحداً واحداً وجميعاً بإطاعة الابن المذكور، وسأله بعد هذا راعي دير كروكستون أين يرغب أن يدفن، إذا توفي، فأجابه: « إلى الرب، وإلى القديس وولستان Wolstan أعهد بجسدي وروحي»، وبعد هذا فارق هذه الحياة في الليلة التالية بعد يوم عيد القديس لوقا الانجيلي، وكان هذ بعدما حكم لمدة ثمانية عشر عاماً ونصف العام، وألبس جسده بثياب ملكية وحمل إلى وورسستر Worcester ، وهناك دفن في الكنيسة الكاتدرائية بشكل مشرف من قبل أسقف ذلك المكان، وعندما كان الملك يقترب من الموت في نيوارك، وصل إليه رسل إلى هناك مع رسائل من حوالي أربعين من البارونات، الذين رغبوا في عمل سلم معه ثانية، لكن بما أنه كان على حافة الموت، لم يكن بإمكانه إعطاء انتباهه لهم، وقام أحدهم بنظم نقشه الذي سوف يحفر على قبره بالأبيات التالية:

Hoc In Sacrophago Sepelitur Regis Imago

Qui Moriens Multum Sedavit In Orbe Tumultum.

Hunc Mala Post Mortem Timor Est Ne Fata Sequantur.

Qui Lgis Haec, Metuens dum Cernis Te Mositurum,

Discute quid rerum pariat mefa dierum.

حكم الملك جون ثمانية عشر عاماً، وخمسة أشهر، وأربعة أيام.

### حول تتويج هنري الثالث ملكاً على انكلترا ووقائع حكمه

وبعد وفاة الملك جون، وفي عشية عيد الرسولين سمعان وجود، جرى عقد اجتماع في غلوستر بحضور والو، مندوب الكرسي الرسولي، وكان بين الحضور هناك بطرس أسقف وينكستر، وسيلفستر أسقف وورسستر، ورالف إيرل أوف شيلستر، ووليم مارشال، إيرل أوف ممبروك، ووليم إيرل أوف فيرار، وجون مارشال، وفيليب دي ألبيني، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان وعدد كبير من الآخرين، للاعداد من أجل تتويج هنري الابن الأكبر للملك جون، وفي اليوم التالي وكانت جميع الإعدادات قد اكتملت، اقتاد النائب البابوي برفقة الأساقفة والنبلاء المذكورين الملك بمسيرة مهيبة إلى الكنيسة الديرية من أجل تتويجه، ووقفوا هناك أمام المذبح الكبير بحضور رجال الدين والناس، وأقسم، على الأناجيل المقدسة والآثار الأخرى المقدسة للقديسين، بأنه سوف يلتزم بمراعاة الشريف، والسلام، والتبجيل نحو الرب، ونحو الكنيسة المقدسة، ونحو رجالها المكرسين، طوال أيام حياته، كما أنه أقسم بأنه سوف يظهر عدلاً دقيقاً إلى الشعب الذي عهد إليه العناية به، ولسوف يزيل جميع القوانين السيئة والأعراف الفاسدة، إذا توفر أي منها في المملكة، وسوف يلتزم بمراعاة القوانين والأعراف الجيدة، ويتدبر أمر الالتزام بهم ومراعاتهم من قبل الجميع، ثم إنه قدم الولاء إلى كنيسة روما المقدسة، وإلى البابا انوسنت، من أجل مملكة انكلترا ومملكة ايرلندا، وأقسم أنه طوال تملكه لهاتين المملكتين، سوف يدفع باخلاص الألف مارك التي أعطاها والده إلى الكنيسة الرومانية، ووضع بعد هذا بطرس أسقف وينكستر التاج على رأسه، وعمّده ملكاً بالطقوس المعتادة، بالصلاة والأناشيد التي تتلى أثناء أعمال التتويج،

وبعد الفراغ من أداء القداس ألبس الأساقفة والفرسان الذين تقدم ذكرهم أعلاه، الملك الثياب الملكية، وقادوه إلى المائدة، حيث أخذ الجميع مقاعدهم وفقاً لمراتبهم، واحتفلوا وسط الفرح والسرور، وتلقى الملك في اليوم التالي الولاء والتابعة من جميع الأساقفة، والايولات، والبارونات، ومن الآخرين الذين كانوا حضوراً، ووعده الجميع بولاء مخلص له، وجرى تتويج هنري وهو في العاشرة من عمره، في يوم الرسولين سمعان وجود، الذي كان اليوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول، وبقي بعد تتويجه مستمراً تحت وصاية وليم إيرل أوف ممبروك، الذي كان المارشال الأعظم، والذي أرسل على الفور رسائل إلى عمد المناطق وإلى شحن وولاية القلاع في انكلترا، موجباً على كل واحد منهم وعلى الجميع طاعة الملك المتوج حديثاً، ووعدهم بممتلكات وبالإضافة إلى ذلك الكثير من الهدايا، على شرط الارتباط باخلاص بالملك المذكور، وبذلك ارتبط به بقوة جميع النبلاء وولاية القلاع الذين خدموا والده، لأنهم اعتقدوا أن ذنوب الوالد لا تجوز مطالبة الابن بها، وبناء عليه بدأ الجميع بالاستعداد للدفاع عن قلاعهم ولتقويتها بقدر الامكان، وتشجع الذين وقفوا إلى جانب الملك، لأنهم شاهدوا أن شركاءه في الآثام ومحرضيه عليها كانوا يجري حرمانهم كنسيا كل يوم أحد، وكل يوم عيد.

### كيف غادر لويس دوفر لدى سماعه بوفاة جون

وعندما تلقى لويس والبارونات الذين كانوا يحاصرون دوفر أخبار وفاة الملك جون، كانوا مسرورين جداً، وكأنهم شعروا بثقة بأنهم على وشك استلام مملكة انكلترا، وأنها صارت الآن تحت سلطانهم وفي أيديهم، واستدعى لويس هيوبرت دي بورغ قسطلان قلعة دوفر للاجتماع به وقال له: «إن مولاي الملك جون قد مات، ولايمكنك مواصلة التمسك بالقلعة ضدي لوقت طويل، لأنك بدون حامي لك،

ولذلك سلم القلعة، وصر مخلصاً لي، ولسوف أغنيك بالتشريفات، ولسوف تحتل مركزاً عالياً بين مستشاريي»، ويحكى بأن هيوبرت قد ردّ على هذا العرض قائلاً: « مع أن مولاي قد مات، إن لديه أولاد وبنات، يتوجب أن يخلفوه، وبالنسبة لتسليم القلعة، سوف أتشاور مع أتباعي من الفرسان»، ثم إنه عاد إلى القلعة، وأخبر رفاقه بالذي قاله لويس، وقد كان موقفهم بالاجماع رفض تسليمها له، خشية أن يوصموا بالخيانة، لخضوعهم الجبان، وعندما جرى ابلاغ هذا إلى لويس وإلى البارونات، قرروا الاستيلاء على القلاع الصغيرة في أرجاء المنطقة، حتى إذا ما فرغوا من القلاع الصغيرة، وصارت بين أيديهم، يمكنهم مهاجمة القلاع الأكبر، ولذلك رفعوا الحصار، وعادوا إلى مدينة لندن، وإثر تراجعهم وفور ذلك خرج الفرسان الذين كانوا يدافعون عن القلعة، وأحرقوا البيوت والأبنية التي شيدها لويس في مواجهة القلعة، ثم نهبوا المنطقة، فحصلوا على كميات وافرة من المؤن ومن الضروريات للحصن وللحامية.

### حصار قلعة هارتفورد والاستيلاء عليها

وبعد هذا زحف لويس في اليوم التالي لعيد القديس مارتن مع جيش كبير إلى بلدة هارتفورد، وألقى الحصار عليها، وصف آلات رميته من حول القلعة لقصف الأسوار، وقد تولى وولتردي غوداردفيل، الذي كان فارساً شجاعاً، من أتباع فالكاسيوس، الدفاع عنها مع جنوده، وأوقع قتلى كثيرين بين الفرنسيين، وحدث على كل حال أنه بعدما استمر الفرنسيون في مواصلة الحصار لوقت امتد من عيد القديس مارتن حتى عيد القديس نيقولا مقابل نفقات باهظة، استسلمت البلدة للويس، شرط الحفاظ على الحامية، وعلى ممتلكاتها وخيولها وأسلحتها، وهكذا جرى التنازل عن البلدة، فعمل روبرت فتز - وولتر طلباً بتسليمها له، قائلاً بأن المسؤولية عنها عائدة إليه بموجب حق قديم، ثم

سأل لويس رأي الفرسان الفرنسيين حول هذه القضية، فأخبروه بأن البارونات الانكليز غير جديرين بتولي المسؤولية عن مثل هذه الأماكن، لأنهم خونة للملكهم، وبناء عليه أخبر لويس روبرت المذكور بأن عليه الانتظار صابراً حتى يكتمل اخضاع المملكة، فوقيتها سوف يعطي لكل واحد حقوقه.

وفي هذا العام نفسه، وفي يوم عيد القديسة كاترين القديسة والعدراء، أطلق سراح النبيل وليم دي ألبيني وخرج من السجن، بعدما دفع غرامة قدرها ستة آلاف مارك فدية عن نفسه، ثم إنه قدم الولاء إلى الملك هنري، الذي عهد إليه بولاية قلعة لافورت، التي حافظ عليها بنشاط.

### الاستيلاء على قلعة بيركها مبستد

وبعد الاستيلاء على قلعة هارتفورد، كما ذكرنا أعلاه، زحف لويس في يوم عيد القديس نيقولا إلى قلعه بيركها مبستد، وأحاط بها بآلات حربه، وأثناء قيام البارونات الانكليز بنصب خيمهم، وكانوا يسعون لإقامتهم بانتظام، قام فرسان وجنود الحامية بهجوم مباغت، استولوا فيه على الأتقال وعلى حاجيات البارونات، وتملكوا راية وليم دي ماندفيل، وعادوا بها إلى القلعة، أسفين أنهم لم يتمكنوا من إلحاق أضرار أكبر بهم، وفي اليوم نفسه، عندما كان البارونات جالسين عند المائدة، قام فرسان وجنود الحامية ثانية بانقضاض، ولكي يوقعوا البارونات بالاضطراب، حملوا أمامهم الراية التي كانوا قد استولوا عليها قبل وقت قصير، وفكروا بمهاجمتهم وهم غارين، لكن هؤلاء البارونات جرى انذارهم قبل وصولهم، ولذلك طردوهم وأعادوهم إلى القلعة، وفي فجر اليوم التالي أمر لويس بالمجانيق وبقية آلات الحرب، فنصبت من حول المدينة، وما أن فرغوا من ذلك حتى داوموا على رميها بزخات من الحجارة المدمرة، لكن فالران Walleran ، وكان ألمانيا واسع الخبرة

بشؤون الحرب، عمل مقاومة شجاعة ضدهم، وأوقع مذبحه كبيرة وسط الفرنسيين المحرومين كنسياً، وأخيراً على كل حال قام فالران المذكور بتسليم القلعة بعد حصار طويل، وجاء تسليمه لها بناء على أوامر الملك، وقد أعطاهما إلى لويس مستثنياً خيول رجال الحامية وسلاحهم، وكان ذلك في العشرين من كانون الأول، وفي اليوم التالي الذي كان عيد القديس توماس، ذهب لويس، بعدما وضع أتباعه في القلعة، إلى القديس ألبان، وطلب من راعي الدير تقديم الولاء له، وعلى هذا أجابه راعي الدير بأنه لن يقدم الولاء له حتى يتحرر من الولاء الذي عمله إلى ملك انكلترا، وقد غضب لويس من ذلك كثيراً، وأقسم بأنه سوف يحرق الدير والبلدة كلها، ما لم يفعل الذي طلبه منه، وأخيراً أعطى راعي الدير المذكور إلى لويس غرامة عن نفسه وعن البلدة، وجاء ذلك بعدما تلقى تهديداً عظيماً، وبناء على وساطة سير Sayr إيرل وينكستر، وحصل على هدنة من لويس حتى عيد طهارة العذاراء، وبعدها دفع له ثمانية ماركات من الفضة، وبناء على هذا عاد لويس إلى مدينة لندن.

### حوادث تتعلق بأرض الميعاد

وفي العام نفسه، ولدى انتهاء الهدنة المعمولة بين الصليبيين في أرض الميعاد والمسلمين، وأثناء العبور الأول، بعد المجمع المسكوني الذي عقد في اللاتيران، احتشد جيش الرب في قوة عظيمة في عكا تحت قيادة ثلاثة ملوك هم: ملك القدس، وملك هنغاريا، وملك قبرص، وكان بين الحضور دوق النمسا، ودوق بوهيميا مع أرتال طويلة من الفرسان من مملكة ألمانيا، وذلك مع عدد من الكونتات ورجال من مختلف المراتب، وكان موجوداً رؤساء أساقفة نيقوسيا، وسالزبورغ Salzburg وآرجيا Argia، وهنغاريا، وبيوكس Bayeux، وباورج Bawerge، وسيسينو Ciceno، ومنستر Munster، وأوترخت، وكان معهم النبيل

والقوي وولتر دي أفيني Avennes ، وبالإضافة إلى هؤلاء بطيريك القدس، الذي حمل بتواضع كبير، وسط رجال الدين والناس، وبتبجيل رمز الصليب المانح للحياة، وقد انطلق خارجاً من عكا في اليوم السادس بعد عيد جميع القديسين، يؤم معسكر جيش الرب، الذي كان قد ذهب إلى خربة كرداني Recordana، وكانت هذه قطعة من صليب الرب حفظت مخفية، بعد فقدان الأرض المقدسة، والذين أخفوها هم من الصليبيين، وقد أخفوها حتى هذه الأيام، لأنه في أيام الصراع بين المسلمين الصليبيين في أيام صلاح الدين، جرى قطع الصليب، حسبما سمعنا من شيوخنا، وقد حملت قطعة منه إلى القتال، وهذه القطعة هي التي ضاعت هناك، لكن القطعة التي بقيت أخفيت، والآن أظهرت وعرضت، وقد زود بها جيش المؤمنين لتكون راية له، وقد زحف خلال سهل الفولة Faba إلى نبع طوبانيا Tubannia، وعانى الجيش من زحفه كثيراً في ذلك اليوم، وأرسل الكشافة للاستطلاع، حيث شاهدوا غباراً تسبب بإثارته العدو، لكنهم كانوا غير متأكدين فيما إذا كان الأعداء متراجعين، أم متقدمين للتصدي لهم، وزحفوا في اليوم التالي بين جبال جلبوع التي كانت على يمينهم، وبحيرة على يسارهم، ووصلوا إلى بيسان حيث كان العدو معسكراً، وخاف العدو من دنو جيش الرب الحي، لأنه كان جيشاً كبيراً، ويزحف بانتظام رفيع، وقوض العدو خيمه، وهرب، تاركاً المنطقة عرضة للسلب والنهب من قبل جنود المسيح، وفي عشية عيد القديس مارتن (٧ - تشرين ثاني) عبر جيش المؤمنين نهر الأردن، وقد استحم أفراده في ذلك النهر، واستراحوا هناك بهدوء لمدة يومين، حيث وجدوا وفرة من المون، وعملوا هناك ثلاث محطات على طول ساحل بحيرة طبرية، وعبروا خلال الأماكن التي تلتف رينا فعمل بها معجزاته، وتحادث بشخصه مع الناس، وشاهدوا بيت صيدا، التي هي مدينة أندرو، وبطرس، واستولوا على حصن صغير، ورأوا أيضاً الأماكن التي دعا فيها المسيح تلاميذه، وسار فوق

الماء بقدمين حافيتين، وأطعم الحشود في الصحراء، وذهب إلى الجبال للصلاة، وحيث أكل بعد قيامته مع تلاميذه، ثم إنهم عادوا عبر طريق كفر ناحوم إلى عكا وهم يحملون مرضاهم معهم.

وعملوا بعد هذا حملة ثانية، وزحفوا نحو جبل الطور، حيث واجهوا أولاً ندرية في الماء، لكن بعد ذلك عثروا على وفرة عن طريق الحفر، وفقد مقدمو الجيش كل أمل في الصعود إلى الجبل، حتى جرى اخبارهم من قبل غلام مسلم بأنه من الممكن الاستيلاء على القلعة، ولذلك عقدوا اجتماعاً، وفي يوم الأحد الأول لشهر قدوم الرب (٣- كانون أول)، عندما جرت قراءة قوله في الانجيل: «اذهبا إلى القرية التي أمامكما» (متى: ٢١/٢)، مضى البطريرك في المقدمة مع رمز الصليب، ووسط الصلوات، وانشاد الترانيم من قبل الأساقفة ورجال الدين، وصل الجيش إلى جانب الجبل، ومع أنه كان وعراً من كل جانب، وبدا أنه لا يمكن تسلقه، إلاً بوساطة ممر ملتوي، على الرغم من ذلك تسلقه الجميع غير هيايين، وتمكن جون ملك القدس، مع جنوده، من ترجيل قسطلان القلعة عن فرسه مع أمير، وكانا أول من هاجم العدو وتصدى له خارج الأبواب، وكانا يرغبان بالدفاع عن الجيب، وقد أربكاهما كثيراً وأرغماه على الفرار، لكن الفخار الذي حصل عليه الملك وناله أثناء تسلقه للجبل، قد ضيعه في النزول، لأن عدداً من الداوية والاستبارية والعلمانيين أصيبوا بالجراحة، عندما استرد العدو شجاعته، علماً بأن عدداً قليلاً قد قتل في هذه الحملة، وكذلك في الحملة المتقدمة التي أتينا على ذكرها، وقد أحضر الصليبيون معهم عدداً كبيراً من الرجال، والنساء، والأطفال، إلى عكا، حيث تولى الأسقف تعميد جميع الذين قدر على السيطرة عليهم بالالتهاسات، أو بالمال، ووزع النساء بين الراهبات، وأمرهن بتعليمهن القراءة.

وفي الحملة الثالثة التي لم يكن البطريرك موجوداً فيها مع رجال

الدين ورمز الصلب، عانى جيش الايمان من المصاعب، ومن اللصوص وقطاع الطرق ومن قسوة الشتاء، ولاسيما عشية عيد الميلاد، فعندما كان رجال الجيش يزحفون، أزعجتهم الأنواء بعواصف الريح والمطر، في أحواز مدينة صور، وصيدا، وقرب الصرند أيضاً، وقد واجهوا الكثير من المشاق، وعانوا من قسوة المناخ جسدياً.

### كيف فكر بارونات انكلترا ملياً حول الحالة التعيسة لشؤونهم

عام ١٢١٧م، فيه كان الملك الصغير هنري أثناء عيد الميلاد في بريستول، برفقة والو، النائب البابوي، ووليم مارشال الوصي على الملك والمملكة، وتوفر في ذلك الحين الكثير من النقاش والحيرة بين بارونات انكلترا، حول أي حاكم يتوجب أن يعهدوا إليه بأنفسهم، هل هو هنري الصغير، أم لويس، ولأنهم عوملوا بشكل سيء كثيراً من قبل الفرنسيين، قام كثير منهم برفض مساعدتهم، وتضاعفت هذه الانفعالات العاطفية والدوافع المثيرة وازدادت بأعمال لويس نفسه الذي لم يقيم وزناً لأيمانه وتعهداته، حيث أنه على الرغم من شكواهم احتفظ بين يديه بأراضي وممتلكات وقلاع البارونات المذكورين، التي أخضعها بمساعدتهم، ووضع فرساناً أجنبياً وأناساً غرباء مسؤولين عنهم، هذا من جانب ومن جانب آخر، بدا أمراً مهيناً بالنسبة إليهم العودة بولايتهم إلى ملك هم تخلوا عن الولاء له، خشية أن يعدوا مثل كلاب عائدة إلى قيئها، وفي وضعهم الصعب هذا من كل جانب لم يكن بإمكانهم اصلاح أحوالهم المحطمة.

وفي العام نفسه، في العشرين من كانون الثاني قام فرسان وجنود حامية قلعة مونتسوريل Montsorrel بغارة لسلب ونهب المنطقة، لكن فرسان نوتنغهام علموا بمحاولتهم عن طريق كشافتهم، فخرجوا للتصدي لهم، واشتبكوا معهم بالقتال، فأسروا عشرة فرسان، وأربعة وعشرين جندياً، من الفئة المعادية، وقتلوا ثلاثة، وبعد ذلك عادوا

## كيف نهب فالكاسيوس بلدة سانت ألبان

وفي العام نفسه، في الثاني والعشرين من كانون الثاني حشد اللص الشرير فالكاسيوس قوة من الفرسان والصوص من حامية قلاع اكسفورد، وبدفورد، وويندسور، وتوجه إلى سانت ألبان، وكان التاريخ هو ليلة عيد القديس فينسنت Vincent، حيث وصل عند المساء، وقام بهجوم غير متوقع على المكان، فنهبه، واتخذ أسرى من الرجال والأطفال، وأودعهم في سجن مضيق عليهم، وقتل عند باب الكنيسة بالذات واحداً من أتباع البلاط كان يسعى للالتجاء إلى الكنيسة، وبعد اقرار هذه الجريمة الشريرة من قبل أولئك وكلاء الشيطان، أرسل أوامر قضت بوجوب أن يرسل إليه وليم راعي الدير على الفور مائة باوند من الفضة، أو أنه سوف يتولى على الفور إحراق البلدة كلها، مع الدير والأبنية الأخرى، وبناء على ذلك، دفع له راعي الدير، بعد كثير من التردد، المبلغ، ذلك أنه لم يكن أمامه مخرج آخر، وقام فالكاسيوس بعد هذا ومعه رفاقه المحرومين كنسياً، فأسرع مبادراً معهم وهم يحملون السلاح، يؤم قلعة بدفورد، حيث أخذ معه أسلابه وأسراه، وزحف من ذلك المكان مع أتباعه إلى غابة وولبورغ Walburg، وأسر هناك روجر دي كولفيل Coleville وستين من رجال الدين والعلمانيين معه، كانوا متخفين هناك من أجل جمع الأسلاب.

## معاهدة بين ملك انكلترا وبين لويس

وفي هذه الآونة، جلب الرسل الذين ذهبوا لصالح لويس إلى بلاط روما، رسالة له، أنه مالم يغادر انكلترا، فإن قرار الحرمان الكنسي الذي تفوه به والو النائب البابوي ضده، سوف يجري تثبيته في يوم عيد عشاء الرب، وبناء على هذا عقدت هدنة فيما بين لويس والملك هنري تمتد

حتى شهر الفصح، وبموجب هذه الهدنة جرى الاتفاق على إبقاء كل شيء حتى ذلك التاريخ، على حاله كما كان يوم الحلف على الهدنة، وذلك فيما يتعلق بكل من القلاع والممتلكات الأخرى، وبعدها عبر لويس البحر أثناء الصوم الكبير، وباقدامه على هذه الخطوة لم يحظ ثانية بثقة ومحبة بارونات انكلترا، كما حصل من قبل، لأنه من هذه الفئة، عاد: وليم إيرل أوف سالسبري، ووليم إيرل أوف آرونديل، ووليم إيرل وارني، وآخرون كثير، على الفور، إلى ولائهم إلى الملك هنري، وارتبطوا بقضيته منذ ذلك التاريخ، ودعا مجدداً المارشال الكبير ابنه الأكبر، وليم

وقيسارية، وهي ليست بعيدة عن البحر، ولهذا السبب، فإن الذين صعدوا على الطريق الضيق ونزلوا، وهم قاصدون للقدس سموها « District »، وعلى رأس منافع هذه القلعة وفوائدها، أن فرسان طائفة الداوية بعد مغادرتهم لمدينة عكا، التي كانت مليئة بجميع الذنوب والآثام، رغبوا بالإقامة بها حتى ترميم أسوار القدس، وكانت المنطقة المحيطة بها مليئة بوفرة بمصائد السمك، والبحيرات، والغابات، والمراعي، والمروج، والحقول، والأعشاب، والكروم، والحدائق والبساتين، ولم يكن المسلمون يمتلكون لأية بلدة فيما بين عكا والقدس، لذلك عانوا في سبيلها من خسائر كبيرة، وعلى بعد ستة أميال من جبل الطور، فيما بين القدس ونهر الأردن، يوجد ميناء طبيعي جيد، ولذلك ليس بإمكان المسلمين الزراعة ولا الفلاحة في السهل الواسع القائم بينهما، لأنه موجود تحت حماية هذه القلعة، وبعد ما فرغ جيش الرب من تحصين هذه القلعة، عاد إلى عكا.

## العلامات في السماء التي أثارت مقاطعة كولون للمساعدة

### في الحملة الصليبية

في شهر أيار من هذه السنة، وفي اليوم السادس قبل أحد الشعانين، استيقظت مقاطعة كولون لأداء واجبها إلى المخلص، فقد ظهر في بلدة بيون Bebon في فريزلاند، في السماء شكل الصليب في ثلاثة أماكن، واحد متجه نحو الشمال ولونه أبيض، وآخر باتجاه الجنوب له الشكل نفسه واللون، والثالث في وسط لون مظلم، على شكل صليب، وجسد انسان تمدد عليه مع ذراعين مرفوعين ومدودين، ومع مسامير مغروسة خلال القدمين واليدين، والرأس مطأطء نحو الأسفل، وكان هذا الثالث في الوسط بين الاثنين الآخرين، وعلى الاثنين الآخرين لم يظهر تمثال جسد انسان، وفي وقت آخر ومكان آخر أيضاً، أي في بلدة في فريزلاند اسمها فوسرهوز Fuserhuse ، ظهر قرب الشمس هناك،

صليب له لون أزرق، وقد رآه أناس أكثر من الذين رأوا الصלבان المتقدم ذكرهم، وظهر صليب ثالث في بلدة اسمها دوكتام Doctham حيث كان القديس بونيفيس قد تتوج بالشهادة، وكان قد تجمع في عيد الشهيد المذكور، آلاف كثيرة من الناس مع بعضهم، وكان وقتها مرثياً صليماً أبيض كبيراً، وكان لوحين قد وضعوا عبر بعضهما بشكل اصطناعي، وقد تحرك هذا الصليب بشكل تدريجي من الشمال نحو الشرق، وقد رأى ذلك عدة آلاف.

### حصار قلعة ماونتسوريل

وفي العام نفسه، احتشد بعد الفصح، بناء على أمر من وليم مارشال الوصي على ملك ومملكة انكلترا، من أجل القاء الحصار على قلعة ماونتسوريل Mountsorel: رالف إيرل شيلستر، ووليم إيرل ألبمارل Albemarle، ووليم إيرل فيرار Ferrars ، وروبرت دي فيبونت Vipont، وبرين دي لي آيل، وو. W دي كانتلأب Cantelupe، وفيليب مارك Marc، وروبرت دي غوغي Gaugi ، وفالكاسيوس مع ولاية قلاعه، وعدد كبير آخر من حاميات القلاع المختلفة، وقد قاموا على الفور بترتيب آلات حربهم في مواضع مناسبة، وطوقوا القلعة، وكان أمر الموقع هنري دي بريبروك Braybrooke ، وكان هناك معه عشرة فرسان، وكانوا رجالاً ذوي شجاعة كبيرة، وعدد من الخدم، الذين ردوا بشجاعة على مهاجميهم الحجر بحجر، والسلاح بسلاح، وقام المحاصرون بعدما دافعوا عن القلعة لعدة أيام، وخشية منهم أن يتعرضوا للحاجة للمؤن، من خلال حصار طويل، قاموا بمراسلة سير Sayr، الذي كان وقتذاك في لندن، يرجونه للقدوم فوراً لمساعدتهم، ووقتها ذهب الايرل المذكور - الذي كانت القلعة عائدة إليه - إلى لويس، الذي كان قد عاد مؤخراً إلى لندن، من مقاطعات ماوراء البحر، وطلب منه أن يرسل بعض المساعدة، حتى يمكن بوساطتها رفع

الحصار، وبعد التشاور فيما بينهما، وصلا إلى قرار إرسال قوة من الفرسان لرفع الحصار، ولاخضاع المنطقة كلها إلى لويس، وتنفيذا لهذه الخطة، خرج من مدينة لندن ستائة فارس، وأكثر من عشرين ألف من الجنود،الذين اشتهوا تملك أملاك الآخرين، وكان هذا الرتل تحت قيادة كونت أوف بيرشي Perche أمر الجيوش بفرنسا، وسير ايرل وينكستر، وروبرت فتر - وولتر، مع عدد كبير آخر قدروا أنهم أهل لقيادة الحملة، وقوضوا نعيمهم في الثلاثين من نيسان، وكان ذلك يوم اثنين هو التالي قبل صعود ربنا، وزحفوا إلى القديس ألبان، وقد نهبوا كل مكان مروا به وعبروه، وتجول هؤلاء اللصوص الفرنسيون وقطاع الطرق في أرجاء البلدات ولم يوفروا لا كنيسة ولا مقبرة، واعتقلوا الناس من السكان من كل مرتبة، وبعدهما عذبوهم بشكل مريع، استخرجوا منهم غرامات ثقيلة، أما بالنسبة لدير القديس ألبان، الذي كان قد دفع راعية قبل وقت قصير ماأرضى به لويس، بمبلغ كبير من المال، فقد نجا من أيدي اللصوص، حيث أنهم لم يستولوا على شيء سوى اللحم والشراب.

### معجزة صليب الرب

ونقلوا في التالي معسكرهم، وزحفوا نحو بلدة دنستيل Dun-stable، وفي بلدة رد بورن Redbourn، نهبوا كنيسة القديس أمفيبالوس Amphibalus ، وجردوا الرهبان حتى من ملابسهم الداخلية، واخذوا أيضاً آثار القديسين من فوق المذبح الكبير، ودنسوهم بأيديهم غير التقية، واستولى أحدهم على صليب مزين بالفضة والذهب، وكان يحتوي في داخله على قطعة من صليب مولانا، وخبأه في صدره دون أن يعرف ذلك رفاقه، وحدث أنه قبل أن يغادر القلاية تلبسه شيطان، فسقط أرضاً وهو يصصر بأسنانه، ويخرج الزبد من فمه، ثم إنه نهض بسرعة بناء على إثارة الشيطان له، وسعى إلى ضرب أصحابه بسيفه، وقد أشفق هؤلاء على آلامه، وربطوا يديه، ودون أن يعرفوا

سبب ما حدث له، أخذوه إلى كنيسة فلامستد Flamstead في حالة من الجنون المخيف، ولدى دخول أولئك اللصوص إلى تلك الكنيسة بقصد نهبها، تصدى لهم كاهن، كان مرتدياً لثوب أبيض، وقد أراد إيقاف الشيطان المتلبس لأولئك الرجال غير الأتقياء، ونظراً لخوفهم على رفيقهم المجنون الذي جلبوه معهم، توقفوا عن النهب، وهناك بحضور الرئيس وعدد كبير آخر، قفز الصليب المذكور خارجاً من صدر الرجل المجنون، وسقط على الأرض، وتناوله الرئيس ورفعته بكل احترام ودهشة، وأمسك به، وسأل اللصوص عنه، وتمكنوا أخيراً بعد تقدير للأمر وتفحص من أن يعرفوا، وكان ذلك بوساطة زيارة الرب هذه، بأنه قد سلب بشكل إجرامي من الرهبان الذين نهبوهم في البلدة المجاورة، وكانوا جميعاً في حالة من الارتباك والخوف، خشية أن تتلبسهم روح الشيطان، وأن تتولى تعذيبهم، كما فعلت برفيقهم، ولذلك قاموا وهم يشعرون برعب كبير بإعطاء الصليب إلى الرئيس، ورجوه بفضيلة الرب، وبخوفهم من طائفته، أن يقوم قبل أن يتناول أي طعام، فيذهب إلى المكان، ويعيد الصليب إلى الرهبان، وبناء عليه ذهب الرئيس بكل سرعة إلى قلاية القديس أمفيالوس، وسلم الصليب بكل احترام، وروى حكاية الحوادث الاعجازية المتعلقة به، إلى رئيس الرهبان وإلى الرهبان.

### رفع الحصار عن قلعة مونتسوريل وحصار قلعة لنكولن

وصل جيش لويس وبارونات انكلترا إلى دنستييل، وهناك أمضوا الليل، وفي الصباح زحف نحو الشمال، مسرعاً للتفريج عن قلعة منتسوريل المتقدمة الذكر، وعلم بهذا الزحف رالف إيرل أوف شيبستر مع الآخرين الذين كانوا يحاصرونها، وقد أخبرهم بذلك كشافتهم، ولذلك رفعوا الحصار، وتراجعوا إلى قلعة نوتنغهام، حيث قرروا مراقبة تقدم أعدائهم، وعندما وصل البارونات إلى قلعة مونتسوريل،

ويعد ما نهبوا— وفقاً لطبائعهم المعتادة— المقابر والكنائس على طريقهم، تقرر بموافقة الجميع متابعة الزحف إلى لنكولن، حيث تولى غيلبرت دي غانت مع البارونات الآخرين الذين تقدم ذكرهم أعلاه، حصارها [مونتسوريل] لوقت طويل دون نجاح، ثم إنهم قاموا بالزحف خلال وادي بلفيور Belvoir وهناك سقط كل شيء بأيدي هؤلاء اللصوص، وذلك بحكم أن جنود مملكة فرنسا الذين كانوا حثالة تلك البلاد وخبثها، هم لم يتركوا شيئاً دون أن يدمروه، ولذلك كان فقر الناس وتعاستهم هائلة جداً إلى حد أنهم لم يجدوا من الملابس ما فيه كفاية لستر عوراتهم، ووصلوا أخيراً إلى لنكولن، وقام البارونات بهجمات حادة على القلعة، وفي الوقت نفسه رد المحاصرون على رماياتهم من الحجارة والنشاب بزخات من الحجارة ومن الأسلحة القاتلة بشجاعة عظيمة.

### كيف حشد ملك انكلترا جيشاً لرفع الحصار عن قلعة لنكولن

وأثناء وقوع هذه الوقائع، قام وليم مارشال، الوصي على الملك وعلى المملكة، بناء على نصيحة والو النائب البابوي، وبطرس أسقف أوف وينكستر وآخرين كانت بأرائهم تترتب أمور المملكة وتدار، بجمع جميع ولادة القلاع العائدة إلى الملك مع الفرسان الذين كانوا مسؤولين عن القلاع في مختلف أنحاء المملكة، وأمرهم—بناء على أمر الملك— بالاحتشاد في نيو آرك، في اليوم الثاني من اسبوع عيد الشعانين، ليزحفوا من هناك معهم لرفع الحصار عن قلعة لنكولن، وكانوا يتحرقون رغبة للالتحام مع الفرنسيين المحرومين كنسياً، وليقاتلوا أيضاً في سبيل بلادهم، وقد وصلوا مسرورين إلى المكان المحدد من قبل، في الوقت المعين، ووصل معهم النائب البابوي نفسه، وعدد كبير من الأساقفة الآخرين للمملكة، مع خيول وجنود، للهجوم بالأدعية وكذلك بالسلاح على أولئك العصاة لمليكنهم والمتمردين على مولاهم البابا، فقد

بدا الأمر بالنسبة إليهم أنهم يمتلكون قضية عادلة للقتال من أجلها، ولا سيما أن ملكهم كان بريئاً، وبعيداً عن الذنوب، هذا الملك الذي يسعى الأعداء بصلفهم لحرمانه من ميراثه، وعندما احتشدوا جميعاً مع بعضهم، لوحظ وجود أربعائة فارس في ذلك الجيش، وذلك مع حوالي مائتين وخمسين من رماة القسي الزيارة، وكان أيضاً موجوداً حشد لا يحصى عدده من الأتباع والخيالة، الذين يمكنهم في وقت الحاجة القيام بواجبات الجنود، وكان قادة هذا الجيش: وليم المارشال، ووليم ابنه، وبطرس أسقف وينكستر، وكان رجلاً بارعاً في فن الحرب، ورالف إيرل أوف شيلستر، ووليم إيرل أوف سالسبري، ووليم إيرل فيرار، ووليم إيرل أوف ألبمارل، وكان هناك أيضاً من البارونات: وليم دي ألبيني، وجون مارشال، ووليم دي كانتلو (ورداسمه من قبل: كانتيلوب) ووليم ابنه، وفالكاسيوس الشهير، وتوماس باسيت، وروبرت دي فيبونت، وبرين دي آيل، وفيليب دي ألبيني، مع كثير من ولاية القلاع المجريين بالحرب، وقد أقاموا ثلاثة أيام عند نيوارك حتى تستجم الخيول ويتتعش الرجال، وشغلوا بالوقت نفسه أنفسهم بالاعتراف، وبتقوية، أجسادهم بالمشاركة بدم وجسد مولانا، سائلين إياه حمايته ضد حملات أعدائهم، وهكذا كانوا جميعاً جاهزين لمواجهة المخاطر، وقد قرروا الحصول على النصر أو الموت في سبيل القضية العادلة.

### كيف عندما احتشد جيش الملك شجع النائب البابوي رجاله جميعاً من أجل المعركة

وبعد أمد، نهض النائب البابوي، في اليوم السادس من اسبوع الشعانين، بعد إقامة قداس قربان مقدس، وأوضح للجميع، كيف أن قضية لويس كانت قضية غير عادلة ومعه أيضاً البارونات الذين التحقوا به، ولهذا السبب حرّموا كنسياً، وصاروا غرباء بالنسبة للجماعة

الكنيسة، ولكي يشجع الجيش للقتال، وضع عليه أرديته البيضاء، وقام مع جميع رجال الدين الذين كانوا هناك بإعلان الحرمان الكنسي للويس بالاسم مع جميع المتعاونين معه ومشجعيه، وبشكل خاص أولئك الذين كانوا يتابعون حصار لنكولن ضد ملك انكلترا، مع جميع المقاطعات، في الداخل وفي الخارج، وأما بالنسبة للذين تولوا القيام بالمساعدة في هذه الحرب شخصياً، فقد منحهم بوساطة السلطة المخولة إليه من الرب القديرومن الكرسي المقدس، غفراناً كاملاً من جميع ذنوبهم، التي عملوا عنها اعترافاً صحيحاً، وكجائزة للصالحين، وعدهم بثواب خلاص سرمدي، ثم إنهم بعدما تلقوا جميعاً التحليل، ومباركة الرب، طاروا إلى السلاح، وامتطوا خيولهم على الفور، وقوضوا معسكرهم وكلهم سرور، ولدى وصولهم إلى ستو Stoue على بعد ثمانية أميال من لنكولن، أمضوا الليلة هناك من دون خوف، وجرى في الصباح تشكيل سبعة أفواج كثيفة وحسنة التكوين، وزحفوا ضد الأعداء، وكانوا يخشون فقط من أن يهرب هؤلاء الأعداء قبل وصولهم إلى المدينة، وسار حملة القسي الزيارة، طوال الوقت، أمام الجيش بمسافة تقارب الميل، وسارت عربات الأثقال ودواب التحميل خلف الجيش في الساقة مع المؤن والحاجات الضرورية، وفي الوقت نفسه رفرفت الرايات ولعت الترسة في جميع الاتجاهات، وألقت الرعب في قلوب الذين رأوهم.

### كيف خرج البارونات من مدينة لنكولن واستطلعوا جيش الملك

وكان البارونات الذين كانوا في المدينة مع الفرنسيين قد شعروا بثقة كبيرة، واطمئنوا إلى نجاحهم في مسألتهم، إلى حد أنه عندما أخبرهم رسلهم بوصول خصومهم ضحكوا منهم واستخفوا بهم، واستمروا في رمي قذائفهم من مجانيقهم لتدمير أسوار القلعة، لكن روبرت فتز—وولتر، وس. S. إيرل أوف وينكستر، عندما رأيا بأن جنود

العدو باتوا قريبين من المدينة، خرجا لمراقبة وصولهم ولتعدادهم، وبعدها أكملوا عملية مسح دقيقة وتقدير للعدو الواصل، عادا إلى المدينة إلى رفاقها، وأخبراهم قائلين: «إن العدو المقبل ضدنا هو في تعبئة جيدة، لكننا أكثر منه بكثير، ولذلك فإننا نرى وجوب خروجنا من المدينة لتسلق الراية للتصدي له، لأننا إذا فعلنا ذلك سوف نمسك أفراده مثل طيور القنبرة»، وجواباً على ما قالاه، قال كونت أوف بيرشي، وناظر الجيش وأمره: «لقد عددتهم وفقاً لرأيكم، ونحن سوف نخرج الآن ونقدر تعدادهم وفق الطريقة الفرنسية»، وخرجوا لاستطلاع الجيش المقبل للملك، وفي تقديرهما له انخدعا، لأنها عندما رأيا العربات والأثقال في ساقية الجيش، مع الحرس الذين تبعوا الأرتال التي كانت معبأة من أجل القتال، اعتقدوا أن هؤلاء لوحدتهم شكلوا جيشاً قائماً بذاته، لأنها شاهداً حشداً كبيراً من الناس، مع أعلام خفاقة، لأن كل واحد من النبلاء كان معه علمين، علماً—كما تقدم وقلنا—كان يتبع العساكر على مسافة في الساقية مع الأثقال، وعلماً آخر كان يتقدم أمام أشخاص كل واحد منهم، حتى يكونوا معروفين عندما يشتبكون في القتال، وعلى هذا انطلت الخديعة على كونت بيرشي مع ناظر الجيش، وعاداً في حالة من الشك وعدم التأكد، إلى رفاقها، ولدى عودتهما إلى المدينة اقترحا على أصحابها الخطة التالية، ولم يعترض أصحابها على ما أشارا به، وكانا قد اقترحا تقسيم النبلاء حتى يمكن حراسة الأبواب، ومنع العدو من الدخول منها، حتى يتمكن الآخرون من الإستيلاء على القلعة، الأمر الذي سوف ينفذ فوراً، وقد وافق كثيرون على هذه الخطة، لكن بعضهم لم يوافق عليها، ثم إنهم تدبروا حماية الأبواب، فعينوا حرساً لهم واستعدوا من أجل الدفاع.

**المعركة التي نشبت عند لنكولن ويسمىها بعضهم «العادلة»**

واقترب جيش الملك في الوقت نفسه من الجانب الأقرب من القلعة،

وعندما انكشف ذلك قادة القلعة أرسلوا رسولا خرج من باب خلفي للقلعة ليخبر قادة الجيش والذي قد عمل في الداخل، وأخبرهم هذا الرسول أنهم إذا ما رغبوا فبإمكانهم الدخول إلى القلعة بتلك الطريقة، لكن أرسلوا فالكاسيوس مع جميع الفرقة التي كانت تحت قيادته، وكل رماة القسي الزيارة، ليقوموا بالعمل على شق طريق بالقوة خلال أحد أبواب المدينة ليدخل منه الجيش، ثم زحف الجيش كله نحو الباب الشمالي، وسعى نحو الاستيلاء عليه وفتحه بالقوة، ولم يعبأ البارونات بذلك، بل تابعوا رمي الحجارة الثقيلة من مجانيقهم ضد القلعة، وفي تلك الأثناء كان فالكاسيوس قد دخل إلى القلعة مع جماعة العساكر التي كانت تحت قيادته، ومعهم رماة القسي العقارة، ومركزهم بشكل مفاجئ على أسطحه الأبنية وعلى الشرفات، حيث من هناك رموا بأسلحتهم القاتلة ضد المهاجمين من البارونات، فكان أن ألقوا بالخيول وبرجالها على الأرض، وهكذا تمكنوا بطرفة عين من رمي قوة كبيرة من الجنود الرجالة، والفرسان والنبلاء، وعندما رأى فالكاسيوس أن عدداً كبيراً أضرهم من نبلاء الأعداء، قد ألقى بهم على الأرض، شق طريقه بجراة مع أتباعه واندفع من القلعة إلى وسط الأعداء، وقد وقع على كل حال - أسيراً في أيدي الأعداد الكبيرة التي انقضض عليها، وأخذوه، حتى جرى انقاده بوساطة شجاعة رماة القسي العقارة لديه والفرسان، وتمكنت الكتلة الكبرى من جيش الملك، في الوقت نفسه من شق طريقها بالقوة خلال الأبواب، وانقضض رجالها بشجاعة على الأعداء، وشدهد شرر النار وهو يتطاير، وسمعت الأصوات وكأنها رعود مخيفة، وهي صادرة عن ضربات السيوف على خوذات الرؤوس، لكن الذي حدث أخيراً هو أنه بوساطة رماة القسي العقارة، الذين ببراعتهم عقرت الخيول ورميت أرضاً وقتلت مثل خنازير، أخذ حزب البارونات يضعف كثيراً، لأنه عندما كبت خيولهم وقتلت، وقع الممتطون لها أسرى، لأنه لم يكن هناك من ينقذهم، ثم إنه أخيراً عندما ضعف

البارونات على هذه الصورة، ووقعت أعداد كبيرة من جنودهم أسرى، وجرى وضعهم في أماكن أمنيّة، انقض فرسان الملك بصنوف متراصة على كونت بيرشي، وطوقوه تماماً، وبما أنه لم يعد بإمكانه الصمود أمام اندفاعهم القوي ضده، دعوه إلى الاستسلام حتى ينجو بحياته لكنه أقسم أن لا يستسلم لانكليزي، لأن الانكليز خونه لملكهم الشرعي، ولدى سماع ذلك انقض عليه فارس وطعنه بعينه، فخرق دماغه، فسقط إثر ذلك دون التفوه بكلمة أخرى، وعندما رأت الكتائب الفرنسية مقتل قائدها، شرعت بالفرار، وشارك في ذلك الجنود الخيالة والرجالة، مع خسائر كبيرة، لأنه مزلاج الباب الجنوبي، الذي شرعوا بالفرار من خلاله، كان قد وضع بشكل معكوس، مما أعاق فرارهم كثيراً، لأنه كان عندما أي واحد يصل إليه، ويرغب بالخروج من خلال ذلك الباب، كان يرغم على الترجل من على ظهر حصانه، وبعد عبوره، كان الباب ينغلق ثانية، ويسقط المزلاج من جديد عبر الباب كما كان من قبل، وهكذا شكل هذا معيقاً كبيراً، وسبب اضطراباً عظيماً للفارين، ولاحقت قوات الملك البارونات والفرنسيين الفارين، ومع أن بعضهم وقعوا أسرى، فإن رجال الملك تظاهروا فقط بمطاردتهم، ولولا أنهم فعلوا ذلك بحكم العلاقات والقربات، ما من واحد منهم كان يمكن له النجاة، ودون أن أطيل الرواية من دون هدف، كان من بين قادة البارونات الذين وقعوا أسرى: سير إيرل وينكستر، وهنري دي بوهون Bohon إيرل أوف هيرفورد، والكونت غيلبرت دي غانت، الذي جعل منه لويس مؤخراً إيرل لنكولن، وكان كونت دي بيرشي ممددا ميتاً هناك، وكان من بين الذين اتخذوا أسرى من البارونات: روبرت فتز-وولتر، ورتشارد دي مونتفتشت Montfitchet، ووليم دي ماوبري Mowbray ووليم دي بوشامب Beauchamp ووليم دي مودوت Maudut وأوليفر دي هينكورت Haencurt وروجردي كريسي Creisi ووليم دي كولفيل، ووليم دي روز Roos

وروبرت دي روبلي Roppele وراف دي تشيندوت Choindut وآخرون كثر، أن تذكرهم أمر متعب، وكان عدد الفرسان الذي أسروا ثلاثمائة، وذلك إلى جانب الجنود من خيالة ورجالة، وهؤلاء ليس من السهل تعدادهم، ودفن كونت دي بيرشي في دير الاستبارية خارج المدينة، أما رينالد الذي لقبه كروكوس Crocus وكان فارساً شجاعاً من حاشية فالكايسوس، قد قتل هناك، فقد دفن في دير كروكستون Croxton بشكل مشرف، وقد قتل هناك في هذه المعركة جنود من حزب البارونات، غير معروفين من قبل أحد، ودفنوا خارج المدينة عند التقاء أربعة طرق مع بعضها، وذلك بحكم كونهم محرومين كنسياً، و فقط الثلاثة الذين تقدم ذكرهم أعلاه، قد ورد ذكرهم بأنهم قتلوا في هذه المعركة الكبيرة.

### نهب المدينة وسلبها

وبعد انتهاء المعركة على هذه الصورة، وجد جنود الملك في المدينة عربات البارونات والفرنسيين مع خيول التحميل، وكلهم مثقلين بالأثقال، وأواني الفضة، ومختلف أنواع الأثاث، وأدوات المنزل، وقد أخذوا ذلك كله بأيديهم من دون معارضة، ثم إنهم نهبوا بعد ذلك المدينة إلى آخر أصغر قطعة نقد، ثم إنهم نهبوا بعد ذلك الكنائس في جميع أرجاء المدينة، وحطموا وفتحوا الصناديق وغرف الخزن بالفؤوس والمطارق واستولوا على الذهب والفضة التي كانت فيهم، وعلى أقمشة من جميع الألوان، وعلى الزين النسائية، وخواتم الذهب، والأقداح، والمجوهرات، كما أن الكنيسة الكاتدرائية لم تنج من هذا التدمير، بل عانت من العقوبة نفسها مثل البقية، لأن النائب البابوي أعطى أوامر إلى الفرسان بمعاملة جميع رجال الدين بمثابة رجال محرومين كنسياً، وبالقدر نفسه بمثابة أعداء لكنيسة روما وملك انكلترا، منذ بداية الحرب، وخسر غيوفري دي دربنغ Drepinges قائد جوقة المرتلين في

هذه الكنيسة أحد عشر ألف مارك من الفضة، وبعدها استولوا هكذا على كل نوع من السلع، حتى إذا لم يبق أي شيء في أية زاوية من البيوت، عاد كل واحد منهم إلى مواليتهم بمثابة رجال أثرياء، وجرى الاعلان عن السلم مع الملك هنري في جميع أرجاء المدينة، وقد أكلوا وشربوا وسط السرور والاحتفال، ووقعت هذه المعركة التي عرضت لويس والبارونات للسخرية، وأطلق عليها اسم «العادلة» في التاسع عشر من أيار، وكان ذلك يوم سبت في اسبوع أحد الشعانين، وقد بدأت فيما بين الساعة الأولى والساعة الثالثة، وانتهت من قبل الذين أداروها بشكل جيد قبل التاسعة، وكثير من نساء المدينة تعرضن للغرق في النهر، لأنهن—حتى يتجنبن الاهانة—أخذن قوارب صغيرة مع أولادهن وخدمهن من الاناث، والسلع الموجودة في بيوتهن، وقد هلكن وهن على طريق رحلتهم، وقد تم العثور فيما بعد في النهر من قبل الباحثين على أقذاح من الفضة، وكثيراً من الأشياء كانت ذات فوائد كبيرة ومرابح للذين عثروا عليها، لأن القوارب كانت محملة أكثر مما ينبغي، ولم تعرف النساء كيف يتدبرن القوارب، فغرقن جميعاً لأن كل عمل، نفذ بسرعة كانت محصلته دوماً سيئة.

وبعد الفراغ من هذه الأعمال، أمر وليم المارشال جميع ولاية القلاع بالعودة إلى قلاعهم مع الأسرى، وأن يحتفظوا بهم هناك في سجون مضيقة، حتى يعلموا برغبة الملك حولهم، وعاد وليم المارشال المذكور في اليوم نفسه، قبل أن يتناول أي طعام، فقد عاد إلى الملك فأخبره بحضور النائب البابوي بالذي حصل، وهم بعدما صلوا إلى الرب وهم سيكون، ما لبثوا ان غيروا الدموع إلى ابتسامات، وفي الصباح وصل رسل إلى عند الملك، وأخبروه بأن الفرسان الذين كانوا في مونتسوريل قد غادروا القلعة وهربوا، وبناء عليه أمر الملك عمدة نوتنغهام بالذهاب شخصياً إلى القلعة وهدمها وتسويتها بالأرض.

## فرار البارونات مع الفرنسيين من لنكولن

بعد مقتل كونت بيرشي - كما ذكرنا أعلاه - لجأ الجميع إلى الفرار خيالة ورجالة نحو مدينة لندن، وكان أبرز الشخصيات بينهم ناظر الجيش مع قسطلان أراس، وجميع الفرنسيين، وتعرض - على كل حال - كثير منهم للقتل، ولا سيما الرجالة، فقد قتلوا قبل وصولهم إلى لويس، لأن سكان البلدات التي عبروا منها أثناء فرارهم، خرجوا للتصدي لهم بالسيوف والهرافات، ونصبوا الكمائن لهم، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، ووصل حوالي المائتي فارس إلى لندن، ومثلوا أمام لويس، ليخبروه عن خسائرهم، وقد أخبرهم وهو موجه اللوم إليهم، أنه بسبب فرارهم، وقع أصحابهم بالأسر، لأنهم لو بقيوا للقتال لكان ربما من الممكن انقاذ أنفسهم، وكذلك انقاذ رفاقهم من الأسر ومن الموت، وينبغي أن نؤمن بأن هذه الهزيمة وقعت للويس ولبارونات انكلترا بمثابة جزاء من الرب، لأنهم كانوا قد أمضوا حتى الآن قرابة العامين تحت الحرمان الكنسي، ولولا أنه جرى تقويمهم بعقوبة ربانية، كان الناس سيقولون: «ليس هناك رب» ولن يكون هناك من يعمل بشكل صحيح، لا ولا واحد أبداً.

## موت البابا انوسنت

وفي السادس عشر من تموز من العام نفسه، سدد البابا انوسنت دين الطبيعة البشرية، بعدما شغل كرسي الخبرة لمدة ثمانية عشر عاماً، وخمسة أشهر، وأربعة أيام، وقد خلفه هونوريوس، الذي كان معروفاً من قبل باسم سينشو Cencio، وهو الذي شغل الكرسي في الكنيسة الرومانية لمدة عشر سنوات، وسبعة أشهر وتسعة عشر يوماً.

## كيف بعث لويس إلى أبيه يطلب منه عساکراً

وبعد سوء الحظ الذي ألم بلويس في لنكولن، بات يائساً من فعالية

قضيته، وبناء على نصيحة تلقاها، بعث رسلاً إلى أبيه، وإلى زوجته السيدة بلانشي، يخبرهما بالخسائر المؤسفة التي ألمت به وبالبارونات الانكليز في لنكولن، وهي خسائر حلت بهم - كما قال - من عند الرب أكثر منها من عند الانسان، وأن ملك الانكليز قد أصبح الآن قوياً جداً، إلى حد أنه يستعرض قوة ضخمة خلال المدن والبلدات من حول لندن، ويمنعه ويمنع أصحابه من مغادرة المدينة، وقال: «علاوة على ذلك، نحن بحاجة مع أتباعنا إلى جميع أنواع المؤن لتناقصها لدينا، ثم إنه لو توفرت المؤن هنا نحن ليس لدينا وسائل لشرائها، ولذلك إنني أخبرك ليس لدينا وسائل للمقاومة، أو لمغادرة انكلترا، ما لم تزودني بعون عسكري قوي»، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الأب من ابنه، وإلى الزوجة من زوجها، قلقاً كثيراً لوجوده في ذلك الوضع الصعب والضائقة، وبما أن الملك كان خائفاً من تقديم العون إلى ابنه المحروم كنسياً، ولأنه غالباً ماتعرض إلى اللوم الشديد من قبل البابا، لأنه منحه موافقته ألقى بثقل المسؤولية عن الأعمال كلها على زوجة لويس، التي لم تكن بطيئة ولا متوانية في القيام بالواجب الذي فرض عليها، بل أرسلت إلى زوجها مساعدة مكونة من ثلاثمائة فارس شجاع مجهزين بشكل جيد بالعتاد من أجل الحرب، وتحيط بهم كتلة كبيرة من الجنود، لكن هذا كله لم يكن من الممكن كتمانها عن ملك انكلترا، الذي استرد الآن شجاعته، وتوفر لديه جيش كبير، كما أنه قد تملك جميع السواحل الجنوبية، لذلك قرر محاصرة مدينة لندن، ومن أجل ذلك وبناء على نصيحة المارشال الأكبر أناب فليب دي ألبيني، وجون مارساك، مع بحارة المواني الخمسة، وكتلة كبرى من العساكر، للقيام بمهمة مراقبة البحار بكل دقة، وأن يعملوا على منع وصول الفرنسيين.

وفي يوم عيد القديس بارثلميو، أوكلت قيادة الاسطول الفرنسي إلى يوستاس الراهب وكان رجلاً فاسداً جداً، وقرصاناً شريراً، وقد أمر

بقيادة الأسطول سالماً إلى لندن، وأن يسلمه إلى لويس، ووقتها أفلعت سفن الجنود المذكورين بالبحر، مع ريح قوية مناسبة، ساقتهم بسرعة نحو انكلترا، لكنهم كانوا جاهلين تماماً بالاستعدادات التي عملت ضدهم، وبناء عليه بعدما قطعوا مسافة جيدة على طريقهم، قدم قادة اسطول ملك انكلترا بوساطة طريق التفافي مع ثمانين سفينة للتصدي لهم، ولذلك كان الفرنسيون خائفين من الاشتباك معهم في البحر، بوساطة سفنهم القليلة العدد، التي لم يتجاوز تعدادها الأربعين ما بين غليون وسفينة عادية، ثم إن الحادثة التي وقعت في لنكولن والتي انتصر فيها عدد قليل على عدد كبير جداً، شجعت الانكليز، فهاجموا بجرأة مؤخرة العدو، وعندما اكتشف الفرنسيون هذا، هبوا إلى حمل سلاحهم، وعملوا مقاومة جريئة ضدهم، وأرسل فيليب دي ألييني مع رجالة رماة القسي الزيارة ورماته العاديين بنشابهم ونبالهم بين الفرنسيين، مما تسبب بمقتلة كبيرة بين الذين تصدوا لهم، وقد خرقوا سفن أعدائهم، وبلحظة واحدة أغرقوا كثيراً منها، كما أنهم ألقوا برماد كلس حامي فوق البحر، وقد هملت الرياح هذا الرماد، فأعمت عيون الفرنسيين، وقام اشتباك حاد بين الاسطولين، لكن اسطول الفرنسيين الذي لم يكن رجاله بارعين في القتال البحري، مالبت أن هزم، لأن ملاحية سقطوا أرضاً بوساطة أسلحة البحارة الانكليز ونشابهم، ذلك أنهم كانوا معتادين على القتال البحري، فطعنوهم بحراهم ونشابهم، أو مزقوهم بسيوفهم ورماحهم، في حين تمكن آخرون من فتح ثغرات في قعر السفن، وأغرقوهم، ولذلك لم يعد لدى الفرنسيين أملاً بالنجاة، فرموا بأنفسهم طواعية بين الأمواج حتى لا يؤخذوا أسرى من قبل أعدائهم، ذلك أنهم آثروا الموت على أن يقعوا أسرى بين أيدي الانكليز، أما النبلاء الفرنسيون الذين بقيوا أحياء فأخذوا أسرى، وقطر الانكليز المنتصرون خلفهم السفن المأسورة، وأبحروا بعد نصرهم الرائع نحو دوفر، ورأتهم الحامية العسكرية لذلك المكان، ورأت هذا الفضل

الرباني غير المتوقع، لذلك خرج رجالها لاستقبال أبناء وطنهم الواصلين، ووضعوا الأسرى التعساء الفرنسيين في معتقلات ضيقة، وكان بين الأسرى ذلك الخائن لملك انكلترا، والقرصان الشرير، يوستاس الراهب، فبعد بحث طويل عنه وجدوه، وجروه من مخبأ إحدى السفن، وعندما وجد نفسه أسيراً، عرض مبلغاً كبيراً من المال مقابل حياته، وسلامة جسده، ووعد في أن يقاتل في المستقبل باخلاص تحت قيادة ملك انكلترا، لكن قال له رتشارد الابن غير الشرعي للملك جون، وهو الذي أسره: « إنك أيها الخائن الشرير، لن تخدع في هذه الدنيا أي انسان بوعودك الزائفة»، وبهذه الكلمات جرد سيفه وقطع رأسه، وجمع بعد هذا أتباع الملك جميع الأسلاب من السفن الفرنسية، وتضمن ذلك: الذهب، والفضة، والأقمشة الحريرية، والأسلحة، وعهد بالأسرى إلى سجن أمين، وأخبر فيليب دي ألبيني الملك بالذي فعله، فقدم على الفور الشكر إلى المولى على هذا النصر الذي أرسلته السماء، والرب هو دائماً وفي كل مكان مدهش بأعماله بين الناس، وعندما وصلت أخبار هذه الحادثة إلى لويس، كان مزعوجاً أكثر من هذه الكارثة، مما شعر به إثر معركة لنكولن.

### اتفاقية السلام التي عملت بين ملك انكلترا وبين لويس

وبعد هذا حشد المارشال، الوصي على الملك والنائب له، جيشاً كبيراً من الفرسان والجنود، وزحف بعزم شديد إلى مدينة لندن، حيث حاصرها من جميع الجهات براً وبحراً، وبذلك قطع الامدادات والمؤن عن الحامية العسكرية فيها، وفكر أنه بذلك سيرغم أفرادها على الاستسلام، وعندما وجد لويس نفسه في هذا الوضع الحرج، أرسل رسالة إلى النائب البابوي وإلى المارشال، أنه على استعداد للتسليم وفق شروطهم جميعاً، على شرط أن يعملوا معه اتفاق سلام مناسب، يحفظون به كرامته مع عدم تعريض أتباعه للأذى، وبناء عليه، بما أن القضية

صارت بين أيديهم، ولأنهم رغبوا إلى أبعد الحدود بالتخلص من لويس، أرسلوا إليه شروطاً للسلام، دونت كتابة، وأخبروه أنه إذا ما وافق على الشروط، سوف يتعهدون بمنحه مخرجا حراً من انكلترا له شخصياً ولجميع أتباعه من المغامرين، لكنه إذا لم يوافق سوف يتدبرون تدميره، والحاق الأذى به من كل جانب، وعندما رأى لويس ومستشاروه هذه الشروط للسلام، كان مسروراً جداً بالسماح له بمغادرة انكلترا، حيث بدا له ولأتباعه أنه بلافائدة البقاء هناك أية مدة أطول، ولذلك أرسل رسالة إلى النائب البابوي، وإلى المارشال الأكبر، لتعيين مكان وموعد من أجل إبرام المعاهدة المذكورة وتنفيذها، ثم وافق الفرقاء على الشروط، واجتمعوا في مؤتمر قرب بلدة ستين Staines على نهر التيمز، لعقد السلام، وكان الملك هنري مع النائب البابوي والمارشال الأكبر، وآخرون كثير من الجانب الأول، ولويس مع الايرلات والبارونات والآخرين من أتباعه من الجانب الآخر، وكلهم هناك وافقوا بفضل النعمة الربانية على شروط السلام المدونة أدناه، وكان ذلك في الحادي عشر من ايلول.

### صيغة السلام والعقوبات الثقيلة للمحرومين كنسيا بسبب الملك

وأقسم في المقام الأول لويس وجميع الذين كانوا محرومين كنسيا، وكل أتباعه من المغامرين، على الأناجيل المقدسة، أنهم سوف يلتزمون بقرار الكنيسة المقدسة، وأنهم سوف يكونون من الآن فصاعداً مخلصين لمولاهم البابا، ولكنيسة روما، وأقسم لويس أيضاً أنه سوف يغادر على الفور انكلترا مع جميع أتباعه، وأنه لن يعود ثانية قط إليها مع نوايا شريرة، وأنه سوف يبذل أفضل جهوده لاقناع أبيه فيليب بأن يعيد إلى الملك الانكليزي هنري جميع حقوقه في مقاطعات ماوراء البحار، كما أنه أقسم أنه سوف يقوم على الفور بتسليم الملك وأتباعه جميع القلاع وكل الأراضي، التي احتلها هو وأتباعه في انكلترا أثناء الحرب، وأقسم ملك

انكلترا مع النائب البابوي والمارشال على الأناجيل المقدسة، أنهم سوف يعيدون إلى بارونات انكلترا وإلى الآخرين في المملكة جميع حقوقهم ومواريتهم مع جميع الامتيازات التي طلبوها من قبل، والتي هي متعلقة بالخلاف الذي تفجر بين جون ملك انكلترا والبارونات، أما بالنسبة للأسرى، والذين فدوا أنفسهم قبل إعداد ترتيبات السلام، وكذلك الذين تولوا دفع جزء من المال المتفق عليه من أجل فديتهم، هؤلاء جميعاً لا يجوز استرداد الذي دفعوه، لكن بالنسبة للمتبقين فإنهم يجررون من دفعه تماماً، وفيما يختص بالأسرى الذي أسروا في لنكولن، أو في القتال البحري قرب دوفر، سواء أكانوا من جانب الملك، أو من جانب لويس، هؤلاء من المتوجب اطلاق سراحهم في كل مكان، وعلى الفور، ومن دون أية صعوبات، ومن دون دفع أية فدية أو غرامة.

وبعد إقرار هذا كله جرى تحليل لويس مع أتباعه وفقاً لطريقة الكنيسة، وأعطى كل واحد منهم إلى الآخر قبلة السلام، لكن عدداً كبيراً منهم فعل ذلك مخادعة، وتظاهروا بالسرور تظاهراً، وعاد لويس بعد هذا إلى لندن، حيث تسلم خمسة آلاف باوند استرليني للانفاق على ما احتاج إليه، ثم قام تحت توجيه المارشال الأكبر، بالتوجه بكل سرعة إلى ساحل البحر، ومن هناك عبر - وهو يحمل وصمة عار أبدية - إلى فرنسا.

واستثنى من الافادة من هذا التحليل وهذا السلام، جميع الأساقفة، ورعاة الدير، ورؤساء الرهبان، والكهنة، والمدنيين، وعدد من رجال الدين، الذين قدموا نصيحة وأظهروا ميلاً نحو لويس والبارونات، وبشكل خاص المعلم سيمون دي لانغتون، والمعلم غيرفاس دي هوبيرج Hobregge اللذان اشتطا كثيراً في عنادهما، وكانا وراء تقديم الخدمات الدينية والقديسات إلى لويس وإلى البارونات المحرومين كنسياً، بوساطة كهنة محرومين كنسياً، ولذلك استثنى من جميع المنافع،

وأرغما من قبل النائب البابوي على الذهاب إلى روما.

وفور مغادرة لويس لانكلترا، أرسل النائب البابوي مفتشين إلى جميع كونتيات انكلترا للبحث من أجل معرفة جميع الذين كانوا مجرمين، ولو بأقل المشاركات في العصيان، مهما كانت الطائفة الدينية التي انتموا إليها، ومهما كانت مراتبهم، وارسالهم إلى النائب البابوي بعد تعليقهم وتجريدهم من جميع المصالح، وقد قام بتوزيع مصالحتهم بين كهنته، وهكذا أغنى أتباعه عن طريق افقار الآخرين، ووصل هيوغ أسقف لنكولن إلى انكلترا أيضاً، ليسترد أسقفيته، وقد دفع ألف مارك استرليني نقداً لصالح البابا، ومائة إلى النائب البابوي، وحذا حذوه عدد من الآخرين من الكهنة ورجال الدين، حيث استردوا حظوة النائب البابوي مقابل تدمير الآخرين، وبمثل هذا الاستنزاف أفرغ حافظات نقود رجال الدين، والكهنة العلمانيين، وهكذا وحسب ماجاء في الانجيل، لقد جمع في مكان واحد، كل الذي كان متفرقاً في الخارج، وعمل من أجزاء متعددة كومة كبيرة.

### كيف استعد سكان كولون وفريزلاند للزحف

#### إلى الأرض المقدسة

وكان في هذه الآونة هناك حركة عظيمة لرجال شجعان ومقاتلين أشداء في مقاطعتي كولون، وفريزلاند، لأنهم قاموا منذ التبشير بالصلبية بعد المجمع المسكوني، بنشاط عظيم، فبنوا ثلاثمائة سفينة، وأقلعوا فيهن، للوفاء للرب بنذر الحج، ونشروا الأشرطة، ووصل الشطر الأعظم منهم مع أرتال كبيرة من الجنود إلى لشبونة، حيث تفجر خلاف شديد فيما بينهم، حول إلقاء الحصار على قلعة قوية اسمها القليعة Alchata، فقد كان بعضهم متشوقاً لمتابعة الزحف، وأراد آخرون امضاء الشتاء حيث كانوا، وهكذا انقسم الاسطول، حيث أمضى القسم الأول منهم الشتاء

في غيطه Gaeta وسورنتو Sorrento ، وتولى القسم الآخر، وهو تحت قيادة قائدين هما: وليم دوق هولاندا، وجورج كونت ويز Weise إلقاء الحصار على القليعة، وأثناء انشغالهم بالحصار تجمعت قوة كبيرة من المسلمين ضدهم، واشتبك المسلمون معهم في القتال، وبوساطة العون الرباني غلبوا المسلمين، وجرى قتل ملك واحد من المسلمين، كما جرى قتل عدد آخر وأخذوا أسرى، وجرى أخيراً الاستيلاء على القلعة من قبل الألمان، واحتفظ بها الصليبيون.

### حصار قلعة نيوآرك وروبرت دي غوغي

عام ١٢١٨م، فيه كان الملك هنري في أيام عيد الميلاد في نورثامبتون، حيث قدم فالكاسيوس كل الضروريات من أجل الاحتفال الملكي، وكان في تلك الآونة في انكلترا كثير من النبلاء، كانت متعتهم الرئيسية أثناء الحرب الأخيرة، أن يعيشوا على النهب، والآن مع أنه أعلن عن السلام ومنح إلى الجميع، لم يكن بإمكانهم منع أيديهم وإيقافها عن النهب، وكان رأس المثيرين لهذا العمل:

وليم إيرل أوف ألبميرلي Albemerle ، وفالكاسيوس وولاية قلاعه، وروبرت دي فيبوت، وبرين دي آيل، وهيودي بالويل Baliol، وفيليب مارسبي، وروبرت غوغي، وعدد كبير آخر، الذين بتحد منهم لتحرير الملك، وضد موافقة الملاكين استأنفوا أعمال الاحتفاظ بين أيديهم بقلاع بعض الأساقفة والنبلاء مع أراضيهم وممتلكاتهم الأخرى، وكان بين هؤلاء روبرت دي غوغي، الذي رفض، بعد عدة انذارات من الملك تسليم هوغ أسقف لنكولن، قلعة نيوآرك مع البلدة ومتعلقاتها، مع أنها كانت حقاً لذلك الأسقف وأثارت هذه الظروف غضب المارشال الأكبر، فقام بناء على أوامر الملك فحشد جيشاً كبيراً، وزحف بصحبة الملك نفسه ضد القلعة المتقدمة الذكر، وعندما وصلا إلى أحوازها، أرسلوا أمامها بعض الجنود لمنع رجال الحامية من مغادرة

القلعة، حتى لا يتمكنوا من القيام بهجوم مفاجيء ومن ثم يحرقون البلدة، وعندما سمع روبرت وأصحابه بوصول هذا الجيش، قاموا بانقضاض عليه، لكنهم أرغموا على التراجع ثانية بسبب قتال جنود الملك، وقتل أثناء هذا القتال وليم دي ديفا Diva ، وكان فارساً من حاشية هوغ أسقف لنكولن، وجاء قتله أثناء مطاردته للأعداء وهم يتراجعون إلى القلعة، وقد جرح عدد آخر، وقد انزعج الملك والمارشال الأكبر كثيراً تجاه هذا، وأمر بالآت حربيها بالانتشار والتمركز حول القلعة ورمي الأسوار ومتابعة القصف من المجانيق، واستمر الحصار لمدة ثمانية أيام تقريباً، خلاله تقدم أصدقاء روبرت المذكور بعرض سلام إلى أسقف لنكولن، وأخيراً توصل الفريقان مع موافقة الملك إلى اتفاق، قضى بوجوب أن يدفع الأسقف المذكور إلى روبرت غوغي مائة باوند استرليني مقابل المخزونات في القلعة، وبموجب هذه الشروط رفع الحصار، وعاد كل واحد إلى بيته.

### زحف القوات الصليبية من عكا إلى دمياط

وجرى في هذا العام تنفيذ خطط البابا انوسنت، التي كانت قد تقررت في مجمع اللاتيران، أي جلب جيش المسيح إلى أرض مصر، ففي شهر أيار، كانت المراكب والغلايين مع عدد من سفن التحميل قد جرى تحضيرها، وأبحر جون ملك القدس والبطيريك من عكا برفقة أساقفة نيقوسيا، وعكا، وبيت لحم، ودوق النمسا، ومقدمو الداوية واستارية القديس يوحنا، والقديسة مريم الألمان وحشد كبير من الصليبيين، وبدأت الرياح تهب قليلاً، وتمتع جيش الرب برحلة موائمة، ووصل في اليوم الثالث إلى دمياط، ونزل وقتها بعض الجنود إلى اليابسة، واستحوذوا على هذه الأرض العدو من دون سفك للدماء، وتصدى لهم عدد قليل من الفرسان المسلمين، وعندما جثا واحد من الفريزيين على ركبته اليمنى فوق الأرض، وهى نفسه برمحه بيده اليسرى وهز

حربته وسيفه بيده اليمنى، رآه أحد المسلمين فخيّل إليه أنه يلعب، لكنه مالبث أن تلقى فجأة الجراحه على يد الفريزي، وسقط الفارس وفرسه نتيجة لذلك على الأرض، وهرب الباقون، وهكذا اختط جيش المؤمنون معسكره فيما بين الساحل وشواطئ النيل، ونصب آخرون خيمهم من دون عائق، وصنع الرب المعجزة التالية لشعبه المؤمن، فقد كانت مياه النهر قرب البحر عند أول وصولهم حلوة المذاق، ولكنها صارت بعد ذلك مالحة، وصولاً حتى القلعة، التي كانت تبعد ميلاً عن دمياط، وعندما وصل الصليبيون إلى هناك حدث خسوف كامل للقمر، وفسر الصليبيون ذلك أنه يشير إلى هزيمة المسلمين، لأنهم تنبأوا فعزوا وقوع وقائع كبيرة إلى نقص أو زيادة تلك الظاهرة الفلكية.

### حصار برج دمياط فوق نهر النيل

وشاهد بعد هذا أتباع المسيح في وسط نهر النيل، وليس بعيداً عن دمياط برجاً عالياً ورشيقاً قد بني بشكل قوى من الحجارة، ومنه امتدت سلسلة ضخمة جداً من الحديد عبر النهر إلى المدينة التي قامت على الشاطئ الآخر للنهر، وكان رأي الجميع وجوب احتلال ذلك البرج قبل إلقاء الحصار على دمياط، لكن قام الفريزيلانديون، مع انعدام الصبر المعهود لديهم، بعبور النيل، واستولوا على خيول المسلمين، وكانوا يرغبون بنصب معسكرهم على الطرف الأقصى من النهر، ووقفوا يقاتلون ضد المسلمين الذين خرجوا للقتال ضدهم، ولقد استدعوا -على كل حال- من قبل البطريك، بموجب قسمهم بالطاعة، لأنه بدا بالنسبة لقادة الصليبيين أنه ليس مفيداً ترك البرج خلفهم مملوءاً بالمسلمين، ورأى قادة جيش المسيح، أنهم وإن كانوا متشوقين للسيطرة على ذلك البرج، من غير الممكن الاستيلاء عليه بالتجويح، بسبب قربه من المدينة، كما لا يمكن لغمه بسبب قوة جريان الماء الذي يحيط به، كما لا يمكنهم إخضاعه بالقصف من مجانيقهم وعراداتهم، لأنهم قد حاولوا

ذلك لعدة أيام، فحصلوا على قليل من التقدم أو على لا شيء، وفي وسط هذه المعضلة توصلوا إلى القرار التالي، وهو وصل بعض السفن والقوارب مع بعضها، وأن يعدوا بعض السلام على قمم السواري، ووضعوا هناك بعض رماة القسي الزيارة والجنود، وقد أملوا بوساطة هذه الخطة بتحقيق غرضهم، ووقتها شيد دوق النمسا مع استبارية القديس يوحنا سلمين فوق القوارب، وقد رفعنا نحو الأعلى في عيد القديس يوحنا (٢٤ حنزيان) وقام المسلمون طوال الوقت بعمل مقاومة شجاعة، ومخزن أن نحكي بأن سلم الاستبارية قد تحطم، وسقط جنودهم في النهر، ومثل ذلك أيضاً حدث للسلم الثاني، أي سلم دوق النمسا وسقط بالطريقة نفسها مع سارية السفينة، وغرق الفرسان الشجعان والجنود في النيل وقد أخذ المسيح أرواحهم جميعاً إلى السماء، حيث تتوجوا مع الشهداء الممجدين، ولقد فرح المصريون كثيراً جداً، وسخروا من الصليبيين، وضربوا بأبواقهم استهزاءً بهم، في حين كان الحال على العكس بالنسبة للصليبيين، حيث غلبهم الحزن واليأس، وقام الفريزلانديون والألمان بقيادة أدولفوس دي مونت *Adolphus de Monte*، وكان نبيلاً شجاعاً ومقتدراً، وقتها بتحسين سفينة بسواتر وبقلعة صغيرة وضعوها على رأس السارية، وهوجمت هذه السفينة بشدة من قبل جنود المدينة، والبرج، والجسر بالنفوط وبالمجانيق، وأخيراً اشعلوا النار فيها، وعندما أصبح الصليبيون خائفين أنها سوف تحترق كلياً، بذل الملاحون في السفينة جهوداً كبيرة لإطفاء النار، ووقتها أحدث رماة القسي العقارة من الداخل دماراً كبيراً بين المسلمين، وكانت سفن أخرى، أثناء ذلك الهجوم، تابعة للصليبيين، قد جرى تحصينها بالسواتر الدفاعية، وقد بادرت مسرعة نحو البرج بكل احكام، فتكبدت خسائر كبيرة بالرجال والممتلكات.

**الاستيلاء على البرج المتقدم الذكر والشجاعة المدهشة للصليبيين**

وبين الرب القدير أخيراً الخطة التالية، وقام المهندسون بإلهام منه، بامتلاك القدرة على تنفيذها، حيث قام الجيش الصليبي، على حساب الفرسان الألمان والفريزلانديين، وبالتعاون بين هذين الفريقين فوصلوا سفينتين مع بعضهما بالألواح الخشبية والحبال، وبذلك امتلكوا قاعدة ثابتة، فشيّدوا أربع سوارى، ووضعوا على رأسهم بريج على شكل سلة، وغطوه بالجلود لمنع تأثير النفوط، وشيّدوا تحت البريج سلماً عالياً، وعلقوه بحبال قوية، فوصل إلى مسافة ثلاثين ذراعاً أمام قيدوم السفينة، وتم الفراغ من هذا العمل في وقت قصير، واجتمع قادة الصليبيون وقتها، لفحصه، ولمعرفة فيما إذا كان هناك أي نقص بالنفقات، أو بعبقرية الرجال، حتى يمكن تدارك ذلك، ولقد تلقوا جواباً أن مثل هذه الآلة لم يكن لها مثل من قبل قد صنع من الخشب، واعتقد الصليبيون أنه يتوجب عليهم استخدام هذه المنشأة على الفور ضد البرج، لأن الجسر الذي وصل المسلمون به البرج، كان قد تدمر إلى حد كبير، بسبب الرمايات المتواصلة من آلات الفرنجة، وفي اليوم السادس قبل عيد القديس بارثلميو (١٨ - آب) زحف الصليبيون بشكل تقوي وبأقدام حافية، وبمسيرة مهيبة إلى الصليب المقدس، وسار رجال الدين في الأمام وهم ينشدون ويقرأون القداسات، وتواضع التمسوا العون الرباني، وأن تكون القضية كلها محررة من جميع أنواع الغيرة والحسد، وفارغة من كل تفاخر ورعونة من قبل أي أناس كانوا آنذاك في الجيش، واستدعوا عدداً من القادة لرؤية نتيجة هذا الهجوم، مع أن الفريزلانديين والألمان كان فيهم كفاية لشغل السفن وإدارتها.

وفي يوم عيد القديس بارثلميو (٢٤ - آب) الذي كان اليوم السادس من الأسبوع، مع أن النيل كان فائضاً كثيراً، وقوة التيار كانت معيقة جداً للعمل، سحبت الآلة نحو البرج، على الرغم من كثير من المضاعف والخطر، وسارت السفينة التي ربطت إليها تحت الأشرعة، في

حين سار البطريك، ورجال الدين على طول الشاطئ وهم يصلون إلى الرب، وعندما وصلوا إلى البرج لم يكن من الممكن جلب هذه الآلة المزدوجة إلى الجانب الغربي، ولذلك سارت بشكل مباشر إلى الجانب الشمالي، وأخيراً جرى تثبيتها، وبعد طویل وقت تم ضمان تثبيتها بالحبال والمراسي، مع أن قوة المياه الفائضة كانت تهدد بدفعها بعيداً، وعندما رأى المسلمون ذلك، أقاموا ست آلات رمي على أبراج المدينة لتدمير الآلة، لكن إحدى هذه الآلات التي كانت أكثر فعالية بالتهديم من البقية، تحطمت بعد عدة رمايات، وباتت غير صالحة، ومع ذلك هم لم يوقفوا جهودهم بل أرسلوا رماياتهم وقذفوا بزخات من الحجارة المدمرة، ووضعت السفينة الأولى المربوطة إلى الآلة تحت سفح البرج، لكن وسط خطر عظیم، لأن النفوط التي قذفت منه سقطت عليها مثل البرق، وسببت رعباً شديداً للفرنجة، لكن تم إخضاع النيران باستخدام الخل والحصا ووسائل إطفاء أخرى، ثم قام الذين يديرون الآلة بهجوم حاد، ووقتها كان البطريك ساجداً على الأرض أمام الصليب، ورجال الدين واقفون وهم حفاة، يصرخون بأصوات عالية نحو السماء، ومدّ أعداء الصليب والمدافعون عن البرج، رماحهم نحو الأمام، وصبوا الزيت على الجزء الأعظم من السلم، ثم استخدموا النفوط، وألقوا النيران عليه، واندفع الصليبيون الذين كانوا بالداخل وتقدموا لاطفاء النار، وضغط وزنهم على رأس السلم ضغطاً شديداً، أدى إلى سقوط الجسر المستدير المتحرك الموضوع أمام واجهة البرج، وهبوطه نحو الأسفل، وسقط حامل راية دوق النمسا من عليه، واستولى المسلمون على راية الدوق وسط شهامة كبيرة، ووقتها اعتقدوا أنهم أنفسهم المنتصرون فرفعوا صراخهم حتى عنان السماء، وعندما شاهد الصليبيون ذلك سجدوا بأجسادهم على الأرض يصلون وتابعوا وهم يضربون أيديهم ويصفقون، الدعاء إلى الرب، وأثناء هذا التضرع ورفع رجال شعب المسيح أيديهم نحو السماء، رفعت العناية الربانية السلم، وأطفأت

دموع أهل الايمان النار، ثم استرد الصليبيون شجاعتهم، فاصطرعوا بشجاعة مع المدافعين عن البرج، بالرماح وبالسيوف، والدبابيس والنشاب وأسلحة الحرب الأخرى، وكان هناك شاب شجاع من أسقفية لياج، حيث كان هو أول من تسلق إلى البرج، ثم صعد إليه شاب من فريزلاند، وكان ممسكاً بيده عصا حديدية تستخدم من أجل فصل حبات القمح، وقد اتخذها سلاحاً للقتال، به مزق أعداء الايمان خلف الشرافات والسواتر الدفاعية، وأطاح بهم ذات اليمين وذات الشمال، وكان بين الذين قتلهم مسلم، هو الذي حمل الراية الصفراء للسلطان، وقد انتزعها، ثم تبع واحد الآخر في الصعود إلى البرج، مع أنهم ووجهوا بمقاومة عظيمة من الأعداء القساة والأشداء، وبعد لأي أمكن التغلب على المسلمين، وجاء بعد بكاء الصليبيين ونحيبهم، السرور والانتصار، لأنه لم يعد بإمكان المسلمين تحمل ضغط الأعداد في البرج، ولذلك حاولوا النجاة بإلقاء أنفسهم من النوافذ، وقد غرق عدد كبير منهم، ذلك أن المياه كانت كثيرة وعميقة بالنسبة لهم، وجرى أسر حوالي المائة منهم وهم أحياء وجرى الاحتفاظ بهم من أجل الفدية، وقام المسلمون الذين تراجعوا إلى داخل البرج بإلقاء النار في سقفه، وبما أن الصليبيين المنتصرين وجدوا أنفسهم غير قادرين على تحمل الحرارة، عادوا إلى سلمهم، ثم إنهم أنزلوا الجسر، الذي كان متوضعا في الجزء الأسفل من الآلة، ووضعوه فوق سفح البرج، الذي كان ضيقاً بسبب المياه التي تدفقت من حوله، وقاموا - على كل حال - بمهاجمة باب البرج بمطارق حديدية، وقد دافع المسلمون عنه من الداخل، وكانت الآلة المزدوجة مائتال مثبتة باحكام إلى البرج، لكن أخشاب السلم كانت قد تحطمت في أماكن كثيرة، ومع أن جدران الآلة قد خرقت من أماكن كثيرة بوساطة مقذوفات آلات الأعداء، استمرت ثابتة لايمكن تحريكها من الساعة التاسعة من اليوم السادس من الاسبوع حتى الساعة العاشرة من الأحد التالي، وأخيراً عجز المسلمون كلياً عن متابعة

الدفاع عن البرج، ولذلك طلبوا منحهم هدنة، وسلموا أنفسهم إلى دوق النمسا، على شرط ابقائهم أحياء، وهكذا تمت السيطرة على البرج، وإثر ذلك زود الصليبيون أنفسهم بالمؤن وبجنود جدد، آمين بأن يتمكنوا بعد ذلك من اخضاع المدينة طالما أنهم أخضعوا البرج.

### موت سيف الدين وتدمير أسوار القدس

بعد الاستيلاء على البرج في نهر النيل، بات سيف الدين أكثر شيخوخة في أيام الشرور، وكان هو الذي حرم أبناء أخيه من ميراثهم، كما كان المغتصب الشرير لمملكة آسيا، وقد قهره - كما قيل - الحزن فمات ودفن في الجحيم، وقد خلفه ابنه المعظم عيسى، وكان رجلاً قاسياً وشديداً، حيث قام، انتقاماً منه لحصار دمياط بتدمير مدينة القدس الشهيرة تدميراً كلياً، وحوّل أسوار تلك المدينة إلى أكوام من الخرائب، وذلك باستثناء المسجد الأقصى وبرج داوود، ثم إن المسلمين تشاوروا من أجل تهديم الضريح الجليل لمولانا، وبعثوا برسائل تهديد حول ذلك إلى أهالي دمياط، من أجل مواساتهم وتطمينهم، والذي حدث على كل حال، هو أن ما من واحد منهم وضع يده على ذلك، صدورا عن الاحترام الذي امتلكه ذلك المكان، لأنه كتب في كتابهم الذي هو القرآن، بأن مولانا يسوع المسيح قد حمل به وولد من قبل العذراء مريم، التي يعترفون بأنها عاشت بين الناس من دون ذنب، وأن المسيح كان نبياً، لابل أكثر من نبي، لأنهم يؤكدون أيضاً مضيفين بأنه أعاد النظر إلى الأعمى، وشفى المجذوم، وأعاد ميتاً إلى الحياة، كما أنهم يعتقدون بأن كلمة وروح الإله الحي قد صعدت إلى السماء، ولهذا السبب كان رجالهم العقلاء، يذهبون أثناء الهدنة إلى القدس، ويطلبون رؤية كتاب الأناجيل، فيحترمونها ويبدون اعجابهم بطهارة الشريعة التي بشر بها المسيح، ولا سيما بانجيل لوقا، قوله: «جرى ارسال ملاك الرب»، الأمر الذي غالباً ماناقشه المتعلمون منهم ورددوه، لكن شريعتهم جاءت عن طريق

اثارة الشيطان ومن خلال الراهب المرتد والمهرطق سرجيوس (كذا)، وقد كتبها محمد (صلى الله عليه وسلم) بالعربية، ونشرها وعلمها إلى المسلمين، وقد بدأت بالسيف، وحافظ عليها بالسيف، وسوف تنتهي بالسيف، وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه رجلاً أمياً، كما برهن على ذلك من خلال القرآن، وقد بشر بالذي أملاه المهرطق المذكور أعلاه، ولأنه كان رجلاً قوياً، وسيداً للعرب، فقد تسبب عن طريق التهديد بالأخذ بشريعته..... (تكملة هذا الكلام حذفته لبشاعته القصوى ولعدم فائدته، ويرجح هنا أن مصدر مؤلفنا هنا هو المصدر نفسه في ج ٣٤ ص ٥٤ من موسوعتنا هذه).

### وصول النائب البابوي بيلاغيوس وحجاج آخرون إلى دمياط

بعد اخضاع برج دمياط، كما تحدثنا أعلاه، وصل عدد كبير من الحجاج من مختلف الأصقاع لمساعدة الصليبيين، فيما كانوا يقومون به آنذاك، وكان بين الواصلين بيلاغيوس أسقف ألبانو، وهو نائب للكرسي الرسولي، ومعه المعلم روبرت دي كوركون Courcon، وعدد من الرومان، ووصل عدد من الأساقفة مع كونت نافار، ولدى تزايد المخاطر غادروا، مما سبب اضطراباً شديداً للصليبيين، ووصل في الوقت نفسه أيضاً إلى هناك من مملكة انكلترا رالف المشهور إيرل أوف شيلستر، مع الايرل سير أوف وينكستر، ووليم إيرل أوف آرونديل، والبارونات:

روبرت فتز-وولتر، وجون قسطلان أوف شيلستر، ووليم دي هاركورت Harcourt ، مع حاشية كبيرة، وأوليفر ابن ملك انكلترا، ووصل إلى هناك أيضاً إيرل أوف مارش، وإيرل أوف بار Bar مع ابنه، وكذلك وليم دي كارنون، وإيتيريوس دي توسي Iterius Tocce، وهيرفي دي أورسون Urson، وكثير آخرون.

## الحملتان اللتان قام بهما المسلمون على الصليبيين في دمياط

وبعد هذا وصل المسلمون بشكل مفاجيء في يوم عيد القديس ديونيسيوس Dionysius ، مع سفن وعساكر، وهاجموا أطراف المعسكر، حيث كان الرومان قد نصبوا خيامهم، وقد جرى -على كل حال -صدهم بوساطة قوة صغيرة من الصليبيين، وقاموا بانسحاب سريع إلى مراكزهم، لكنهم لم يستطيعوا النجاة من سيوف مطاردتهم، ومن قوة تيار النهر، فقد علم الصليبيون فيما بعد من المسلمين، بأن خمسمائة من المهاجمين قد غرقوا في النيل، ومن جديد هاجم الأعداء في يوم عيد القديس ديميتريوس Demetrius، في الصباح الباكر، معسكر الداوية، لكنهم ألحقوا ضرراً صغيراً بالصليبيين، لأنهم أرغموا على الفرار من قبل قوة من الخيالة أرسلت ضدهم، ودفعوا حتى الجسر الذي كانوا قد بنوه على مسافة من هناك، وقد توفر حوالي الخمسمائة منهم هم الذين قتلوا من قبل الصليبيين.

## فيضان نهر النيل الذي عانى الصليبيون منه خسائر كبيرة

وفي العيد التالي للقديس أندرو الرسول، حدث في منتصف الليل أن ارتفعت أمواج البحر، وعملت دويماً مرعباً، وصل حتى معسكر الصليبيين، وترافق ذلك مع فيضان مفاجيء للنهر، أخذهم من الجانب الآخر على حين غرة، وطافت الخيام هناك، وتم فقدان المؤن، وحملت الأسماك من البحر ومن النهر إلى خيم الصليبيين، ومع أنهم أمسكواهم بالأيدي، لقد كانوا بغنى عن التمتع بطعمهم، ولولا وجود الخندق، الذي جرى حفره من قبل بموجب خطة حكيمة، وعمله، وإن كان لغرض مختلف، لولا ذلك لكان بإمكان القوى المتحدة للبحر والنهر، أن تجرف بعيداً الناس والخيول والسفن المحملة بالمؤن والسلاح، ولتمكن الأعداء من الاستيلاء عليهم، ولم ينج - على كل حال - من هذا المصير المراكب الأربعة التي بنيت عليها السواتر الدفاعية، من أجل الهجوم على

البرج، فقد جرف هؤلاء مع سفينة خامسة حصرت بينهم، وشكلوا كومة واحدة على الضفة المواجهة، وهناك جرى تدميرهم بالنفوط أمام أعين الصليبيين، وأنقذ عمل الرب آلة الفريزلانديين، والألمان، التي بوساطتها تمت السيطرة على البرج، لكن سفن النقل في الميناء قد تقطعت حبالهن وفقدن.

### المرض الذي هاجم عدداً كبيراً من الجيش الصليبي

وفي هذه الآونة جرت مهاجمة الكثيرين من جيش الصليبيين بأشد الأمراض، وهو مرض عجز الأطباء بفنهم عن إيجاد علاج له، لأن الآلام هاجمت بشكل مفاجيء الأقدام والأرجل، حيث ظهر الجلد عليهما فاسداً وأسود، وفي اللثة والأسنان انتزع عنصر أسود القدرة على الأكل، وغادرت أعداد كبيرة، بعدما هوجمت بهذا المرض، وبعدها تألمت وقتاً طويلاً، إلى الرب، لكن -على كل حال- الذين صارعوا ضد المرض حتى الربيع، نجو بفضل منفعة الحرارة لذلك الفصل، وحفظوا من الموت.

وفي هذا العام نفسه، جرى بوساطة تدخل والو، نائب الكرسي الرسولي، تعيين رتشارد دي ماريسكو Marisco، وكان رجل دين من حاشية الملك جون وصديقاً مقرباً منه، أسقفاً لدرم، وتمت سيامته وتكريسه في الرابع والعشرين من تموز.

### موت وليم المارشال

عام ١٢١٩م، فيه أمضى الملك هنري عيد ميلاد السنة الرابعة من حكمه في أسقفية وينكستر حيث وفر بطرس أسقف ذلك المكان وسائل الضيافة والتسلية له، وفي هذا العام أيضاً مات وليم المارشال، والوصي على الملك، ونائب المملكة، وبعد موته أبقى الملك هنري في منصب الوصاية بطرس أسقف وينكستر.

## حصار دمياط وآلام الصليبيين

وفي هذه الآونة، كان بيلاغوس، نائب الكرسي الرسولي، قد عقد العزم على حصار مدينة دمياط، ولشدة رغبته بذلك، طلب من الصليبيين بعد الاستيلاء على البرج، القيام بعبور النيل، وبناء عليه، ساروا مع سفنهم، على الرغم من المخاطر العظيمة، صعوداً فوق النهر، بين المدينة والبرج المستولى عليه، لكن كانت هناك معيقات كبيرة بوساطة مجانيق المدينة وبوساطة النفوط، وأرغمت إحدى سفن الداوية بقوة تيار الماء على التوجه إلى الضفة القريبة من المدينة، وهكذا ألقيت في مدى أسلحة العدو، وقد هاجمها الأعداء لوقت طويل بالمجانيق وبالجروح الحديدية، وألقوا النفوط عليها من أبراج المدينة، وعندما وجدوا أنفسهم غير قادرين على انجاز ما أرادوه بسبب شجاعة المدافعين عنها، تسلق المسلمون على ظهرها، وبجرأة هاجموا الداوية، وبعد قتال طويل خرقت السفينة، إما من قبل المسلمين، أو من قبل الصليبيين أنفسهم - كما هو مرجح - ومضت نحو قعر النهر، مع المسلمين والصليبيين سواء، تاركة رأس الصاري وحده فوق الماء، ومثلما فعل شمشوم الذي قتل من الأعداء عدداً أكبر أثناء موته مما قتله أثناء حياته، فعل هؤلاء الشهداء من أجل المسيح، فقد أخذوا معهم من الأعداء إلى أعماق المياه، أكثر مما أمكنهم تدميرهم بسيوفهم، وقام المسلمون وقتها بترميم الجسر، وتركوا فتحه ضيقة فقط، وهكذا لم يعد بإمكان سفن الصليبيين السير صعوداً، من دون التعرض للخطر من قوة تيار النهر، واشتعل - تجاه هذا - الفريزلانديون والألمان غضباً، وكان ذلك من حقهم، فهاجموا الجسر بشجاعة بوساطة السفن الكبيرة جداً، وبوساطتها تم الاستيلاء على الجسر، ولم يكن لديهم من عون سوى عون السماء، وبذلك تمكن أقل من عشرة رجال من الشعبين المتقدمي الذكر، من التصدي لجميع قوى مصر، ووصلوا إلى الجسر، ودمروه على مرأى من

جميع رجال الحشد الصليبي، الذين أعجبوا إلى أبعد الحدود بجرأتهم، ثم انهم استولوا على السفن الأربع التي عليهن وضعوا الجسر، وعادوا معهن منتصرين، وبذلك تركوا ممراً حراً مفتوحاً للصليبيين ليبحروا من خلاله، وبعدهما جرى تنفيذ هذا، أدرك المسلمون الخطر الذي يتهددهم، فأقدموا على تحصين ضفة النهر المواجهة للصليبيين بخنادق، وبحواجز من طين الأرض، وسواتر دفاعية من الخشب، وبوسائل دفاعية أخرى، ثم إنهم مركزوا مجانيقهم هناك، وبذلك حرّموا الصليبيين من كل أمل بالمرور من ذلك المكان، ومن القلعة التي هي على بعد حوالي ميل عن المدينة حيث وضعت الدفاعات الجديدة، وأغرقوا أيضاً سفناً عبر النهر، وغرسوا أيضاً تحت الماء في قعر النهر أعمدة، لكن عساكر المسيح ومراكبهم المحصنة والمقواة بالسواتر الدفاعية، والمشحونة بالرجال المسلحين، والتي سار خلفها الغلايين والسفن الأخرى تحت قيادة المسيح نجت كلياً من هذه الكامن والمصائد، ووضع عدو الايمان - على كل حال - كل خوف جانباً، وعبأ صفوفه، وصفها لمواجهة الحملة البحرية للصليبيين، وكان الصف الأول من قواتهم مكوناً من الجنود الرجالة، وقد اصطف على طول النهر، ومعه ترسة تشبه الدراية، وكان الصف الثاني خلفه مثل الاول ومن النوع نفسه، وكان الصف الثالث طويلاً ومشكلاً من الجنود الخيالة، الذين ضايقوا الصليبيين وهددوهم بزخات من الحجارة ومن الاسلحة الأخرى، لكن الرب الحقيقي، الذي لايسمح بامتحان شعبه أكثر مما يمكنه ان يحدث، تجلّى على معسكر عبيده، وحول أسى الصليبيين وحزنهم إلى سرور وفرح، لأنه في ليلة عيد القديسة أغاثا الشهيدة، وعندما كان جيش المسيح مصطفاً بنظام لعبور النهر في اليوم التالي، سببت الأمطار والرياح كثيراً من الضيق للصليبيين، لكن حدث في الليلة نفسها بفضل تدخل الرب، أن سلطان مصر وجيشه أصابهم الرعب، حتى أنهم تركوا خيامهم، دون أن يكون ذلك معلوماً من قبل المسلمين، الذين أمرتهم بالتصدي

للصليبيين ومواجهتهم، فقد رأوا أن نجاتهم وسلامتهم هي بفرارهم، وبناء على ذلك، كان هناك رجلاً مرتداً، قد خرق الشريعة المسيحية لبعض الوقت، ولذلك قاتل لوقت طويل تحت إمرة السلطان، ولقد جاء هذا الرجل إلى ضفة النهر، وصرخ باللغة الفرنسية قائلاً: «لماذا أنتم متأخرون؟ مما أنتم خائفون؟ لقد هرب السلطان»، وبعدما قال هذا طلب أخذه إلى ظهر سفينة صليبية، وهكذا بث في الصليبيين روح الثقة، وحثهم على عبور النهر، وفي الفجر الباكر، وعند انتهاء قداس «دعونا جميعاً نبتهج في الرب» والفراغ من أدائه، جرى إعلام الملك والنائب البابوي بهذا بوساطة صلوات الصليبيين، وبناء عليه عبر الصليبيون، لدى معرفتهم بفرار المسلمين، النهر من دون سفك للدماء، ومتحررين من كل أنواع المعارضة، لكن الوحول جعلت من الصعب الوصول إلى هذه الأرض المعادية، وذلك بسبب عمق المياه، ولذلك استطاعت الخيول بصعوبة بالغة تسلق الضفة، وكان الداوية أول من صعد إلى الضفة، ولذلك بادروا مسرعين نحو المدينة، وألقوا أرضاً المسلمين الذين تجرأوا فخرجوا من الأبواب للتصدي لهم وللصليبيين القادمين، وبطردهم إلى المدينة وردهم إلى داخلها، استولى جيش المسيح على خيام السلطان، وعلى أسلاب المسلمين الفارين، كما أنهم نهبوا عدداً من الدراييء، والغلايين والبراكيس، ومراكب أخرى، هي التي وجدوها تحت القلعة وذلك امتداداً حتى المدينة، وبسبب العبور غير المتوقع للصليبيين، كانت حشود من رجال المسلمين قد هربت من دمياط، تاركين زوجاتهم وأولادهم خلفهم، ووقتها حوصرت دمياط وطوقت من كل جانب، لأن الجنود قد انتشروا بوساطة جسر امتد على طرفي النهر.

الهجوم الأول الذي قام به المسلمون على الصليبيين

بعد شروعهم بحصارها

وبعد ما تم تطويق المدينة على هذه الصورة، استرد أعداء الايمان شجاعته، وقاموا مع السلطان وعساكر حلب، فاستولوا على المكان الذي عبر منه الصليبيون بشكل غير متوقع، ولولا أنه بإلهام لاهوتي وعون رباني، وبشكل رئيسي بفضل شجاعة الألمان، الذين تمكنوا من استرداد المعسكر الأول الذي قام بين البحر والنهر، فلولا ذلك لتعرضت قضية المسيح إلى خطر عظيم، وذلك أن المسلمين المملتين بالخذاع، أصبحوا الآن متهورين ومدفعين كثيراً، ففي فجر يوم السبت قبل الأحد الذي يغنى فيه «عيناى دوماً على الرب» ودون أن يعرف الصليبيون، ألقوا بأنفسهم على شكل كتلة هائلة ووصلوا حتى الخندق، لكن بفضل شجاعة الجنود من كل من الخيالة والرجالة جرى صدهم، لأن الصليبيين كانوا قد عملوا خلفهم خندقاً واسعاً وعميقاً، وذلك كوقاية، حتى إذا ما قام عدو الايمان بهجوم عليهم، يمكنهم أن يكونوا سالمين.

### الهجوم الثاني على الصليبيين

وفي أحد السعف (٣١-آذار) جمع العدو جيشاً كبيراً وقوياً، لمهاجمة خندق الصليبيين ثانية من جميع الجهات، وبشكل خاص جسر الداوية ودوق النمسا، الذي قام بالآونة الأخيرة بالتعاون مع الألمان، بالدفاع بشجاعة، وترجل فرسان المسلمون من على خيولهم مع نخبة قواتهم، وقاتلوا الصليبيين بشجاعة نادرة، وتساقط القتلى والجرحى في جميع الاتجاهات، وبعد لأي كسب المسلمون الجولة إلى حد أنهم استولوا على الجسر، وأحرقوا قسماً منه، ووقتها أمر دوق النمسا أتباعه بالانسحاب من الجسر، والسماح للعدو بعبوره، الأمر الذي لم يتجرأوا على القيام به، وخلال ذلك الوقت كله قامت النساء بشجاعة بتزويد الجنود الصليبيين بالماء، والخمرة، والخبز، والنشاب، وقدم الكهنة المساعدة أيضاً بصلواتهم، وبمباركة الرب، وبتضميد جراحات الجرحى، وفي ذلك

اليوم المقدس، لم يسمح للصليبيين بفرصة القيام بحمل أية سعف نخيل، غير القسي العقارة، والأقواس العادية، والحراب والسيوف، والترسة، والسهام، لأن أعداءهم، كانوا يرغبون بتحرير المدينة من الحصار والمحاصرين لها، لذلك داوموا هجماتهم بدون توقف، وفعلوا ذلك من شروق الشمس حتى الساعة العاشرة من النهار، فلم يسمحوا للصليبيين بأية راحة، وأخيراً تعبوا فانسحبوا من ميدان القتال مع خسائر كبيرة، ومجدداً هاجم المسلمون في يوم الصعود الصليبيين بطريقتهم المعتادة، براً وبحراً، وبعد حملات متوالية لم يتوصلوا إلى تحقيق غرضهم، لكنهم أزعجهم قرب معسكرهم، وأوقع كل فريق كثيراً من الجرحى بالفريق الآخر.

### الحملة الشديدة الثالثة التي قام بها المسلمون على الصليبيين

وقام الأعداء بعد هذا في الحادي والثلاثين من شهر تموز فجمعوا جميع القوات التي استطاعوا حشدها، وبعد حملات متوالية عبروا الخندق، بعدما تغلبوا على المقاومة التي أبدتها قوات الداوية، وشقوا بالقوة صفوفهم، وأرغموا الرجال الصليبيين، على الفرار، وبذلك بات الجيش كله في خطر محيق قريب، وحاول الفرسان مع الخيالة العلمانيين، والجنود الرجالة ثلاث مرات صدهم، لكن من دون تأثير، ورفع المسلمون وقتها أصواتهم، وتضاعف رعب الصليبيين، لكن روح الحكمة والشجاعة ألهمت الداوية، لأن مقدمهم مع المارشال وبقيّة الفرسان الرهبان قاموا بهجوم من خلال الفتحة الضيقة وبشجاعتهم أرغموا الأعداء على الفرار، وعندما رأى الفرسان الألمان والفريزيون، والفرسان من مختلف الشعوب أن عساكر الداوية كانوا في خطر، اندفعوا من أماكنهم القريبة لمساعدتهم، وفقد مائة من رجالة المسلمين ترستهم وقتلوا، وذلك إلى جانب الذين سقطوا في الخندق وماتوا هناك، ثم قام الجنود الرجالة من الصليبيون بالحملة، وتراجع العدو لمسافة

قصيرة، ووقف الجنود الصليبيين وقتها تحت السلاح، حتى وضع حلول الظلام حداً للقتال، وكان المسلمون قد انسحبوا قبل ذلك الوقت، وبقي عدد من الذين قتلوا إلى جانب الخندق، وكان إلى جانبهم كثير من الذين كانت اصابتهم قاتلة، حيث حملوا إلى المعسكر، وبفضل نعمة الرب، وبسبب شجاعة الداوية كان الذين قتلوا من الصليبيين أوقعوا أسرى عددهم قليل، وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الوقائع ناشبة، جرى احراق جميع مجانيق الصليبيين وسلالمهم التي أقاموها في مواجهة المدينة، وكان الذين تولوا احراقها هم رجال حامية المكان، مما سبب ضرراً كبيراً للصليبيين، وبعدهما قام السلطان بهذه الحملات، لم يتجرأ ثانية على الاشتباك مع الصليبيين، بل نصب معسكره قرب الجيش المحاصر للمدينة، ومكث هناك على شكل كمين.

### الاشتباك في معركة بين الصليبيين والمسلمين

عندما بذل جيش المسيح جهوده لمدة طويلة لتدمير أسوار المدينة بمجانيقه وعراداته مع بقية أنواع آلات الحرب، من دون تأثير، رأى القسم الأعقل من رجاله واكتشفوا أنه من غير الممكن الاستيلاء على دمياط من دون إرادة الرب وتدخله، وبناء عليه وعلى تدمرهم استيقظ في الصباح جميع الذين كانوا في المعسكر من أجل انزال العقاب بذنوبهم وخلافاتهم، ذلك أن بعضهم رأى وجوب الإشتباك بالقتال في معركة مع السلطان الذي بقي في معسكره على مقربة من الصليبيين في مكمن هناك، وأنهم بغلبته من الممكن السيطرة على دمياط، هذا من جانب ومن جانب آخر، كان من رأي ملك القدس، ورأي آخرين كثر إلى جانبهم، أنه طالما أن الحصار ما برح مستمراً منذ مدة طويلة، ينبغي الاستمرار به حتى ترغم حامية المدينة على الاستسلام إما بارغام الرب لها على ذلك، أو بضغط المجاعة، لأن جميع الذين نجوا إما عن طريق الباب الخلفي، أو قاموا بتدلية أنفسهم من أعلى الأسوار، قد تبين من

مظاهر تورمهم وأوضاع الجوع الواضحة عليهم أن أبناء مدينتهم كانوا يعانون من المجاعة، وسيطر بالأخير رأي الذين قرروا الاشتباك بالقتال مع المسلمين، وفي اليوم الذي تقدم على يوم عيد القديس يوحنا المعمدان زحفوا جميعاً على شكل كتلة واحدة — مع أنهم كانوا مختلفين بين بعضهم أنفسهم — ضد معسكر المصريين، وكانوا يضمون الجيش كله حتى أنه بصعوبة بقي هناك رجال يتابعون أعمال الحصار، وتابعوا زحفهم، واكتشفوا وجود أعداء الايمان في معسكرهم بين البحر والنهر، وذلك حيث لا يمكن العثور على مياه نقية للشرب، وقام الأعداء لدى اقترابهم بتقويض خيامهم وتظاهروا بالفرار، وبعد ما توغل الصليبيون بزحفهم ما فيه الكفاية، ورأوا أنهم لا يمكنهم الإشتباك مع الأعداء بمعركة مفتوحة، عقد قادة الجيش اجتماعاً طويلاً، تناقشوا فيه عما إذا كان عليهم متابعة الزحف أم العودة، وانقسمت الآراء بينهم بعمق إلى حد أن التشكيلات المختلفة انفصلت دون الوصول إلى أي قرار، وذلك باستثناء الذين حافظوا على طاعة أطول، وأظهر فرسان قبرص، الذين تمركزوا على الجناح الأيمن أولاً علامات الخوف، وكان ذلك عندما هاجم المسلمون الجناح، وكان جنود الرجالة الرومان أول من لجأ إلى الفرار، وجاء من بعدهم فرسان من مختلف البلدان مع بعض فرسان اسبتارية القديس يوحنا، مع أن النائب البابوي، والبطيريك الذي حمل الصليب التمس منهم الصمود في وجه العدو، لكن من دون فائدة، وكانت حرارة الشمس عالية جداً، وقد غلب الجنود الرجالة وقهروا بوزن دروعهم وأسلحتهم، وزادت الحرارة من متاعب الزحف، وقام الذين جلبوا خمرة معهم بشرها صرفة من دون ماء بسبب آلام عطشهم، ولحاجتهم إلى الماء، وأما الذين هربوا بعد الهاربين الأوائل، فظلوا يركضون، حتى انقطعت أنفاسهم، وسقطوا أمواتاً، دون أن يصابوا بجراحة، وصمد — على كل حال — ملك القدس، مع الداوية، وطائفة التيوتون، واسبتارية القديس يوحنا، وايرلات : هولاندا،

ويكي Wicke وسالسبري وتشيلستر، وولتر بيرتولد Bertold، ورينالد دي بونت، والفرنسيون، والبيازنة، وفرسان من مختلف البلدان، صمدوا في وجه حملة المسلمين، وكانوا بمثابة سور للفارين، وحيثما أظهر الأعداء وجوههم، وتعرض ملك القدس إلى الدمار شبه الكلي بنيران النفوط، ووقع بالأسر أثناء هذا القتال من الصليبيين الأسقف المنتخب لبوفياس، مع أخيه أندرودي نانتي، عمدة دي بومونت Beaumont ، وولتر حاجب ملك فرنسا وابنه جون أوف آرك Arc وهنري أوف أولم Ulm ، وقتل ووقع بالأسر ثلاثة وثلاثين من فرسان الداوية، وذلك إلى جانب مارشال فرسان استبارية القديس يوحنا، مع بعض الفرسان الرهبان من الطائفة نفسها، ولم ينج فرسان طائفة التوتون من دون خسائر، وإلى جانب هؤلاء جرى قتل الكثيرين وأخذهم أسرى، وكان فرسان الداوية دوماً أول من يهاجم وآخر من ينسحب، وعلى هذا كانوا آخر الصليبيين وصولاً إلى الخندق، فقد تصدوا بشجاعة إلى الأعداء، وتابعوا صمودهم حتى تمكن جميع الذين كانوا قد دخلوا إلى تحصينات المسلمين وقتذاك من العودة، ثم عاد المسلمون وحملوا أسراهم ، وجمعوا الغنائم وعلم الصليبيون فيما بعد من المسلمين، أن رؤوس خمسمائة من الصليبيين قدمت إلى السلطان، وكان من الواضح أيضاً للصليبيين أن المسلمين عانوا أيضاً من خسائر كبيرة بين صفوف عساكرهم الرئيسيين، لأن السلطان أرسل واحداً من الصليبيين الأسرى لديه للتفاوض لعقد هدنة أو سلام، وتمكن الصليبيون خلال مدة المعاهدة هذه من ترميم خندقهم بشكل جيد وذلك مع آلات الحرب.

### كيف غادر عدد من الحجاج دمياط من دون إذن

وقام في تلك الآونة بعض البحارة، وبعض الخونة للصليبية ومعهم عدد من الصليبيين، بالتخلي عن جيش المسيح، قبل موعد العبور المحدد

بالعادة، وقد تركوه في أعظم حالات خطره، وبمغادرتهم زادوا من أحزان الصليبيين ومن جرأة المصريين، وبناء عليه خرق المسلمون المعاهدة، وقاموا عشية عيد القديس كوسماس والقديس داميان، وفي اليوم التالي (٢٦-أيلول) بمهاجمة الصليبيين بحدثهم المعهودة، وبشدتهم وقسوتهم المشهودة، وذلك مع غلايين مسلحة وبراكيس، وجاء الهجوم بالبر والبحر، وترافق الهجوم مع استخدام المنجنيقات، والدرابييء، وحزم من الأشياء لطم الخندق، وقتلوا بهذا الهجوم المفاجيء عدداً من الصليبيين، غير أن الذي نصر إسرائيل، وهو الرب القدير هياً الأسباب لسلامة المعسكر، لأن سافاريك دي موليون وصل وقتها مع غلايين مسلحة وعدد كبير من الجنود، وعندما رأى الصليبيون هذا وهم في حالة خوفهم العظيم رفخوا أصواتهم نحو السماء، وقدموا شكرهم إلى الرب، وأصبحوا أكثر شجاعة، وبجرأة اشتبكوا مع الأعداء، وأرغموا المسلمين على التراجع بفضل منه هو الذي يحفظ الذين يثقون به.

### الموتان بين حامية دمياط

ولسوف نتحدث الآن ونروي أخبار بعض الوقائع التي وقعت في المدينة، فقد عانى أهل دمياط أثناء حصار مدينتهم الطويل من الهجمات، ومن الجوع ومن الأمراض أكثر مما يمكن وصفه، وكانوا قد وضعوا ثقتهم في أمل أن يتمكن السلطان— كما وعد— بالتعجيل من أجلهم، بالتفاوض مع الصليبيين والاتفاق معهم، حتى يمكن بذلك نجاتهم من الموت، وفي الحقيقة كانت المجاعة في تلك الآونة قد عمت في المدينة، وبات السكان المحاصرون من دون مؤن، لأن القمح المصري غير قابل للخبز الطويل بسبب نعومة الأرض التي ينمو فيها، وذلك باستثناء المناطق العالية قرب القاهرة، حيث كان يحفظ بشكل [اصطناعي] لمدة سنة تقريباً، وأغلق المسلمون وقتها أبواب المدينة حتى لا يتمكن أحد من الخروج ليحدث الصليبيين بما كانوا يعانون منه،

لأنهم تألموا في كل يوم بشكل مرعب، كما بدأت المؤن لدى جيش السلطان، الذي كان يحاصر الصليبيين في الخارج بالنقص الشديد عنده، حتى أن تينة واحدة بيعت باثني عشر ديناراً، وكان بين مختلف أنواع الآلام التي عانى منها أولئك التعساء ليلاً ونهاراً، أنهم هوجموا من قبل الأمراض حتى أنهم لم يعودوا قادرين على رؤية شيء حتى ولو أنهم فتحوا أعينهم على اتساعها، وإلى جانب هذا، فإن النيل الذي يفيض بالعادة ويغمر السهول ويسقيها من عيد القديس يوحنا المعمدان حتى عيد تمجيد الصليب، لم ترتفع مياهه في هذا العام كما هي العادة، بل ترك أجزاء واسعة من الأرض جافة، ولم يكن من الممكن بذرها أو فلاحتها في ذلك الجزء، ولذلك سعى السلطان، وهو خائف من المجاعة، ولرغبته بالحفاظ على دمياط، وبذل جهده للإعداد لاتفاق سلام مع الصليبيين، وقويت عزيمته على الوصول إلى اتفاق بالاستيلاء الرائع على البرج، وبثبات الصليبيين أثناء القتال، فقد تمكن هؤلاء الذين كانوا مجرد قوة صغيرة من المؤمنين الحقيقيين، في أغلب الأحيان من مقاتلة القوات الاسلامية كلها بشجاعة وأرغموها على الفرار، وذلك إلى جانب قتل آلاف كثيرة منهم.

### كيف عرض السلطان تسليم مملكة القدس إلى الصليبيين شريطة انسحابهم من دمياط

وعلى هذا استبد القلق بالسلطان كثيراً، فعقد اجتماعاً مع نبلائه ومستشاريه المخلصين، وخاطبهم كما يلي قائلاً: «إن رب الصليبيين رب قوي، ومخلص وحليف قوي في القتال، وقد عرفنا ذلك جميعاً، وبشكل خاص في الحالة الطارئة حالياً، فقد قاتل بشكل واضح من أجل أعدائنا وضدنا، ومما لاشك فيه، أن كل مايمكننا عمله سوف يكون بلا فائدة، ماداموا يحصلون على عونه، والاستيلاء على دمياط بات وشيكاً، وهي مفتاح مصر، وإذا ما سقطت سوف ينجم عن ذلك خسارة كبيرة لنا

ولشريعتنا، فصحيح أنها حوصرت مراراً من قبل الصليبيين، هي لم تخضع قط لهم، وبناء عليه أعتقد أنه سوف يكون لمصلحتنا، أن نعيد إلى رب الصليبيين، جميع ما هو عائد إليه، حتى باسترداده ما هو عائد إليه، لن يقوم بالاستيلاء منا على ما هو عائد إلينا، ذلك أنه رب عادل، ولا يشتهي الاستيلاء على أملاك الآخرين، وإذا مارفص الصليبيون هذه العروض العادلة من أجل السلام، التي ستكون مشرفة كثيراً إليهم، سوف يثرون بذلك غضب ربهم ضدهم، إلى درجة البغضاء لهم، وذلك بسبب جشعهم الشرير، وهو في كراهية منه ومقت لعجرتهم سوف يتعد عنهم، وسوف يجدون فيه عدواً لهم، مع أنه هو الذي قدم لهم من قبل مساعدته الرحيمة، ومع أن هذا الرأي كان غير مقبول من قبل الكثيرين، أرسل رسالاً إلى الصليبيين، وعرض عليهم إعادة الصليب الحقيقي، الذي كان صلاح الدين قد استولى عليه قبل بعض الوقت الذي مضى، وأن يطلق سراح جميع الأسرى أي الذين يمكن العثور عليهم أحياء في جميع أرجاء مملكة القاهرة ودمشق، وأن يدفع النفقات اللازمة من أجل ترميم أسوار القدس، وأن يعيد المدينة إلى حالتها السالفة، كما أنه عرض التخلي عن جميع مملكة القدس باستثناء الكرك والشوبك، ومن أجل الاحتفاظ بهذين المكانين عرض أن يدفع سنوياً جزية مقدارها اثني عشر ألف دينار مادام محتفظاً بهما، وهاتان القلعتان موجودتان في العربية ولهما سبعة تحصينات قوية، وموجودتان على الطريق الذي يسافر عليه بالعادة تجار المسلمون وحجاجهم من مكة وإليها، كما أن الذي يملك هذين الموقعين يمكنه أن يلحق الكثير من الأذى بالقدس، وبالكروم والحقول، وقرر ملك القدس باصرار مع إيرل شيلستر وجميع القادة الفرنسيين والألمان، بأنه يتوجب قبول هذه الشروط المعروضة، وأنها سوف تكون مفيدة للصليبيين، وعلينا أن لانعجب نحو هذا، لأن الصليبيين كانوا من قبل على استعداد للقبول بشروط للسلام أقل نفعاً من هذه، هي الشروط التي كانت قد عرضت

عليهم قبل هذه الشروط، لولا أن ذلك قد منع من قبل الآراء الحكيمة، وكان النائب البابوي على كل حال راغباً بالاستيلاء على دمياط، وأن تصبح ملكاً له، وأيده بذلك البطريك ورجال الدين، ولذلك تمت معارضة هذه الشروط وأصرروا على أنه ينبغي الاستيلاء على دمياط، قبل جميع الأماكن وفوقها، وسبب هذا الاختلاف بالرأي شقافاً، وبسببه غادر رسل السلطان وهم مسرورين جداً، وعندما جرى اخبار السلطان بهذا، أرسل بشكل سري قسوة كبيرة من الجنود الرجالة من خلال مستنقعات دمياط، وقام مائتان وأربعون من هؤلاء بمهاجمة معسكر الصليبيين، عندما كانوا نائمين في ليلة الأحد بعد عيد جميع القديسين، لكن الجيش استيقظ بوساطة أصوات الحراس، ولذلك وقعوا بالأسر أو قتلوا، وكان عدد الأسرى قد بلغ مائة أو أكثر.

### الاستيلاء الاعجازي على مدينة دمياط

وبعد هذه الأحداث قام الجيش الصليبي بحملات شديدة على مدينة دمياط، وأخيراً شاهدوا أن الشرافات باتت خالية من المدافعين، وبناء عليه وضع الصليبيون بكل سرعة سلالهم على الأسوار وبرغبة عارمة دخلوا إلى المدينة، وهكذا بموجب قرار مخلص العالم، جرى في اليوم الخامس من شهر تشرين الثاني، الاستيلاء على مدينة دمياط من دون مقاومة، ومن دون صوت، ومن دون نهب، لذلك ينبغي أن نعزو النصر إلى ابن الرب وحده، ومع أنه جرى الاستيلاء على مدينة دمياط على مرأى ومشهد من ملك مصر، هو لم يتجرأ - كما هي العادة - على مهاجمة الصليبيين، بل هرب مضطرباً وأحرق معسكره، وتحت قيادة المسيح، دخلت عساكره وقتها دمياط، ووجدوا الشوارع مكتظة بجثث الموتى، وواجهوا رائحة نتانة لا يمكن تحملها صادرة عنهم وعن أكثر المخلوقات البشرية بشاعة، فقد قتل الأموات الأحياء، وقتل الزوج زوجته، والأب ابنه، والسيد خادمه، فلقد هلكوا من روائح بعضهم بعضاً، ولم تكن

الشوارع فقط هي المليئة بالموتى، لأن الجثث كانت ممددة في البيوت وفي غرف النوم، وقد طلب الصبيان والأطفال الخبز، فلم يجدوا أحداً يقطعه لهم، وكان الأطفال الرضع معلقين على صدور أمهاتهم، وكانوا يتدحرجون فوق جثث الموتى، وقد مات الأغنياء المتخمين من الجوع مع أنهم كانوا محاطين بالقمح، فقد مات منذ بداية الحصار ثمانين ألفاً من الناس في تلك المدينة، وذلك باستثناء الذين وجدهم الصليبيون هناك أصحاء ومرضى، وقد بلغ تعداد هؤلاء ثلاثة آلاف أو أكثر، ومن هؤلاء وجد ثلاثمائة من ذوي المراتب العليا، وقد احتفظ بهم الصليبيون أحياء لمبادلتهم بأبناء جلدتهم ممن كانوا أسرى لدى المسلمين، وذلك باستثناء الذين يؤمنون بالمسيح وكانوا معمدين وكانت هذه المدينة قد حوصرت أولاً من قبل البيزنطيين، الذين أخفقوا بالاستيلاء عليها، ثم جرى حصارها من قبل اللاتين تحت قيادة عموري ملك القدس، لكن اللاتين لم ينجحوا، وفي هذه المرة التي هي المرة الثالثة، سلمها ملك الملوك، ومولى الموالي إلى عبيده، وكان مولانا يسوع المسيح هو الذي سيعيش وسيحكم إلى الأبد ثم إلى الأبد.

### منهوبات دمياط الثمينة

وجد الصليبيون في المدينة كميات كبيرة من الذهب والفضة، والحريز، والأقمشة، والألبسة الثمينة، مع زين دنيوية، ومختلف أنواع السلع بكميات وافرة، ولقد أقسموا جميعاً على وجوب حمل الأسلاب إلى الخارج، ومن ثم تقسيمها بالتساوي بين المنتصرين، وقد صدر الأمر بهذا من قبل النائب البابوي تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، وأخذوا من أجل الاستخدام العام شطراً كبيراً من ثروات مصر من ذهب وفضه ولآلئ، وفواكه، وعنبراً، وخيوطاً ذهبية، وشراريب، ومختلف أنواع الأقمشة الثمينة، وقد جرى توزيعها بين أفراد جيش الرب مع القمح الذي وجدوه في المدينة، وتولى أسقف عكا تعميم جميع الأطفال الذين

عشر عليهم أحياء في المدينة، واتخذ النائب البابوي أيضاً من المسجد الكبير للمدينة كنيسة كرسها تشريفاً للعدراء مريم المباركة مع جميع الرسل، ولمجد ورفعة شأن الايمان بالتثليث، وكانت مدينة دمياط، بالاضافة إلى ماتمتع به مكانها من وضع طبيعي أمن لها الحماية، محاطة بثلاثة أسوار، فقد كان هناك سور منخفض في الخارج لحماية الخندق الخارجي، ثم سور ثاني أعلى من الأول، ثم سور ثالث أعلى من الثاني، وكان في السور المتوسط ثمانية وعشرين برجاً رئيسياً مع متاريس مزدوجة أو ثلاثية، قد بقيت دون التعرض للأذى، وذلك باستثناء واحد كان قد تعرض للرميات من مجانيق الداوية، لأن الرب رغب في تسليم تلك المدينة إلى عبيده سليمة لتكون مفتاحاً وممهداً لجميع بلاد مصر، وكانت المدينة قائمة فيما بين رعمسيس وسهل تنيس في أرض جيرسين Gersen، وقد قدر الصليبيون أنها المراعي التي هرب منها بنو اسرائيل من فرعون في أيام المجاعة، حسبها وردت الحكاية في العهد القديم (التكوين: ٤٧).

### الاستيلاء على قلعة تنيس

وجرى بعد الاستيلاء على دمياط على هذه الصورة، إرسال حوالي الألف رجل في يوم عيد القديس كليمنت (٢٣ - تشرين ثاني) على شكل طلائع في قوارب أبحرت داخل نهر صغير اسمه نهر تنيس، من أجل الحصول على المؤن من القلعة والبلدة، وللقيام بتفحص المواقع بشكل دقيق، ولدى اقترابهم من القلعة التي حملت اسم النهر، ورؤية المسلمين الذين كانوا يتولون حراستها، الصليبيين، اعتقدوا أن الجيش الصليبي كله كان هو القادم، ولذلك أغلقوا الأبواب وهربوا، ودخل الصليبيون، والمسيح قائدهم الوحيد، بتشوق وحماس إلى القلعة، وأعلن الصليبيون بعد عودتهم أنهم لم يشاهدوا قط قلعة في سهل أكثر حصانة منها، ذلك أن السواتر الدفاعية فوقها كلها مستديرة، وكانت محاطة

بخندق مزدوج مسور من على الجانبين مع ستائر خارجية، وكانت هناك منتشرة حول القلعة إلى مسافة بعيدة، ولهذا السبب كان من الصعب الوصول إليها من قبل الجنود الخيالة في الشتاء، وهي منيعة جداً في الصيف ولا يمكن الاستيلاء عليها بالحصار من قبل أي جيش، وكانت هذه البحيرة فيها وفرة كبيرة من السمك، وعنه يجري دفع أربعة آلاف مارك سنوياً إلى السلطان، وفي المكان أيضاً وفرة عظيمة بالطيور وبالمالح، وكان هناك عدد من القلاع من حولها كلها خاضعة لهذه القلعة، لأن المدينة التي كانت قائمة قبل القلعة، كانت موقعاً معروفاً كثيراً، وأوسع من دمياط، لكنها تحولت فيما بعد إلى ركام من الخرائب، وهذه هي تينيس التي أشار إليها النبي داوود في المزامير، وكذلك أشار إليها اشعيا بقوله: «الرؤساء الحمقى لتينيس» الخ، ويحكى أن إرميا قد رجم في هذه المدينة، وذلك حسبما وصلنا الخبر في العهد القديم، وتقع تينيس على مسافة سفر يوم من دمياط، وهي على الطريق البحري نحو أرض الميعاد، ولذلك سوف يكون من السهل وضع حامية هناك، وإرسال المؤن إما بالبر أو بالبحر من عكا أو من دمياط، وكانت قد ألحقت أضرار كبيرة بالصليبيين أثناء حصار دمياط، عندما كانت سفنهم تذهب إلى أو تأتي من عند الجيش الذي ذهب إلى قرب ذلك المكان، لأن الشاطئ أمام تينيس هو رملي، ولا يوجد ميناء هناك، بل هناك خليج واسع، ولا يمكن للسفن التي تدفع إلى داخله الخروج من دون ريح طيبة.

وحصل في هذا العام النبيل رالف إيرل شبيستر على إذن من النائب البابوي، وجاء ذلك بعدما قاتل لقرابة العامين في خدمة الرب، وعاد إلى الوطن مع المباركة من النائب البابوي، والأمانى الطيبة من الجيش كله.

**كيف هاجم لويس طولوز وأرغم على التراجع باضطراب**

وفي هذه الآونة، حشد لويس، الابن الأكبر لملك فرنسا، جيشاً كبيراً،

بناء على تخريض من أبيه، لمحاربة الألبينيين الهرطقة، وزحف مع قواته كلها لإلقاء الحصار على مدينة طولوز، التي كانت مسكونة من قبل الملوثين بالهرطقة، وبعدها مركز مجانيقه من حول المدينة، شرع الفرنسيون بمهاجمتها من دون توقف، لكن عندما رأى سكان المدينة هذا، استعدوا للدفاع، ونصبوا منجنيقا أمام منجنيق، وبعدها استمر الحصار لمدة طويلة دونما تأثير، وقعت مجاعة كبيرة بين صفوف الجيش الفرنسي، وهي مجاعة تبعها موتان مخيف بين كل من الناس والخيول، وأصيب سيمون أوف مونتفورت قائد الجيش المحاصر للمدينة بجراحة أمام باب المدينة، بوساطة حجر قذفت من عرادة، ولأن جسده قد سحق كلياً، فقد توفي في مكانه، وأصيب أخوه أيضاً، أثناء حصار قلعة قرب طولوز، وفق الطريقة نفسها، بحجرة مقذوفة، ومات، مما سبب حزنا عظيماً لكثيرين، ولذلك قام لويس بعد الموتان الكبير الذي لحق بجيشه، وبعدها عانى من خسائر كبيرة في جميع سلعه وعتاده، بالعودة وهو مضطرب إلى فرنسا، مع البقية من عساكره.

### التتويج الثاني للملك هنري

عام ١٢٢٠، فيه كان الملك هنري في عيد الميلاد في مارلبورا، وكان مايزال تحت وصاية بطرس، أسقف وينكستر، وفي هذا العام وفي يوم عيد أحد الشعانين الذي كان في السابع عشر من أيار، صار الملك المذكور في السنة الخامسة من حكمه، ولذلك جرى تتويجه ثانية في كانتربري من قبل ستيفن، رئيس أساقفة ذلك المكان، بحضور رجال الدين والناس من مختلف أجزاء المملكة، وفي يوم العيد المقبل للقديس برنابا الرسول اجتمع الملك هنري، ملك انكترا، مع الاسكندر ملك الاسكوتلنديين في يورك، حيث أبرمت معاهدة من أجل عقد زواج بين الاسكندر ملك الاسكوتلنديين واخت ملك انكترا، وبعدها جرى تثبيت العقد، عاد ملك الاسكوتلنديين إلى وطنه.